

عصر الآلة ينهار
وقصص أخرى
بإشراف إدارة الثقافة العامة
كتاب
وزارة التربية والتعليم بمصر
مراجعة
علي أدهم

الألف كتاب (٩٠)

عصر الآلة ينهار ...
وقصص أخرى

بإشراف إدارة الثقافة
بوزارة التربية والتعليم

هذه ترجمة للقصص الانجليزية القصيرة الآتية :

1 — The Machine Stops
E. M. Forster

3 — The Voyage
Katherine Mansfield

4 — The Cat that Walked by Himself
Rudyard Kipling

5 — How the Brigadier Killed the Cat
Sir A. Conan Doyle

6 — How I succeeded in My Business
Stephen Leacock

7 — The Eighty-Yard Run
Irwin Shaw

وهى مختارة من الكتابين الآتيين : ـ

1 — Famous British Short Stories

2 — Short Story Masterpieces

الألف كتاب (٩٠)

عصر الانهيار...
وقصص أخرى

ترجمة
جبران سليم

مراجعة
على أدهم

نشرته
دار العالم العربى

مقدمة المترجم

مازال الصراع محتدماً بين الجسم والروح منذ أقدم عصور الإنسانية، وقد تعددت فى تكييفه المذاهب والآراء ومدارس الفلسفة، كما اختلفت ألوانها واتجاهاتها؛ فتارة يصبح الجسد وإشباعه وإطلاق العنان للعواطف المشبوبة والشهوات العارمة ... منتهى المنى وغاية الوجود، وتارة ترتفع القيم الإنسانية والمثل العليا إلى آفاق من السمو والرفعة والتطهر، وترقى إلى روحانية صافية تستشف ماوراء الغمام؛ فتنشق عطر الألوهية ومعجزات الخلود. والإنسانية فى حرب سجال بينهما، لا يطفىء أوارها غالب ولا مغلوب ..

أما مؤلف هذه القصة فقد سار بنا شوطاً بعيد المدى، قطعت فيه الإنسانية آلاف السنين فى طريق حضارة آلية عمياء وتطور علمى جارف، تحللت فيه من مطالب الجسد من مأكل طيب وشراب هنىء، واستعاضت عنه بالعقاقير والأقراص، وتركت سطح الأرض بما عليها من جبال ووهاد وسهول ومروج وأشجار وأزهار وأطيار، وكره الناس رؤية الشمس والقمر والنجوم والسماء ذات البروج وعاشوا فى أنفاق تحت أطباق الثرى، وسكنوا حجرات كل مافيها آلى يدار بالأزرار، وتتخللها

الأنابيب يجرى فيها تيار الكهرباء فتصل إليهم حاجاتهم ، وتقضى لهم مطالبهم وهم جالسون فى حجراتهم لايريمون ... حتى ارتخت عضلاتهم ووهنت عظامهم !

أما المشاعر المرهفة والأحاسيس الحية وخلجات القلب وخفقات الفؤاد وهمسات الضمائر وصلات الأرحام والقربى وأواصر الألفة والمودة فعفاء عليها ، إذ هى لاتتمشى مع مقتضيات الحضارة الحديثة والتطور الآلى . . .

وقد وصف لنا المؤلف هذه الحياة الآلية وصفاً رائعاً وبين كيف طغت فيها المادية على ماعداها حتى أصبح الإنسان عبداً للآلة ، خاضعاً لأوامرها ونواهيها . وأضحى أسيراً لعقل مسيطر جبار خال من أية عاطفة خلوه من أية قيمة من القيم الإنسانية . ومثل هذا العالم لا يمكن أن يقر له قرار ؛ فقد اندك صرحه وانهار أساسه وزالت تلك المدنيـــة الزائفة المفتعلة وعاد الإنسان سيرته الأولى . . .

إن كل آلة وكل اختراع وكل كسب فى الوجود وكل انتصار فى ميادين العلم والتفوق كإطلاق الأقمار الصناعية وغزو الفضاء واستخدام الذرة . . كل ذلك يتصاغر حتى ما يبين ، إن تعارض مع لثغة طفل غرير أو خلجة ضمير ، أو تحنان هديل أو خرير نبع أو بادرة حنان ، أو دمعة يتيم ، أو نحيب أم على ولدها .

عبد الله سليم

عصر الآلة ينهار...

تأليف

ا . م . فورستر

الجزء الأول

السفينة الهوائية

تصور معى إن استطعت حجرة صغيرة سداسية الشكل كخلية من خلايا النحل ، وليس بها من نافذة أو مصباح لإضاءتها . غير أن إشعاعا رقيقاً كان يملؤها ، ولم يكن بها منافذ للتهوية ، إلا أن هواءها كان نقياً وليس بها آلات موسيقية . وفى تلك اللحظة التى أبدأ فيها تأملاتى كانت الحجرة تنبض بالنغم الشجى ، وكان فى وسطها كرسى ذو مسندين وبجانبه منضدة للقراءة ، وهذا كل ما بالحجرة من أثاث . وكانت تجلس فى هذا الكرسى كومة من اللحم فى قماط .. امرأة طولها خمسة أقدام تقريباً ذات وجه فى بياض الثلج ، وهذه هى صاحبة تلك الحجرة الصغيرة.. ودق جرس كهربى .

ولمست المرأة محولا فتوقفت الموسيقى ... وقالت السيدة تحدث نفسها « يجب على أن أرى من يكون هذا » وبحركة من يدها تحرك الكرسى شأنه فى ذلك شأن الموسيقى يدار بطريقة آلية ، فحملها إلى الجانب الآخر من الحجرة حيث كان الجرس لايزال يرن رنيناً متواصلا .

قالت المرأة : « من المتحدث ؟ » وكان فى صوتها رنة الحنق لأنها

قوطعت مرات منذ أن بدأت الموسيقى ، إنها تعرف آلاف الناس ؛ فقد تقدمت العلاقات الإنسانية فى نواح معينة تقدما بالغاً .

ولكنها حينما استمعت إلى آلة الاستقبال لاحت الابتسامات فى ثنايا وجهها الأبيض وقالت : « هذا حسن جداً ، دعنا نتحدث ، وسأعزل نفسى عن سائر الاتصالات ؛ فلست أتوقع أى شىء هام خلال الدقائق الخمس التالية ، وفى استطاعتى أن أتفرغ لك خلالها تفرغا تاما لأن على بعد ذلك أن ألقى محاضرة عن « الموسيقى فى الحقبة الاسترالية » ثم لمست الزر العازل حتى لا يتصل بها أى إنسان آخر كما لمست جهاز الإضاءة فخيم الظلام على الحجرة .

ثم قالت وقد عاودها الحنق : « أسرع يا كيونو أسرع ، هأنذا فى الظلام أضيع الوقت هباء » .

ومضت عشر ثوان وخمس كاملات قبل أن يبدأ القرص المستدير الذى كانت تمسكه فى يدها فى التوهج وسرى فيه ضوء أزرق خافت تحول إلى لون أرجوانى داكن ، وسرعان ما استطاعت أن ترى وجه ولدها الذى يعيش فى الجانب الآخر من الأرض ، كما استطاع أن يراها .

— « لشد ما تتباطأ يا كيونو ! »

وابتسم كيونو باكتئاب فقال :

— « إنى لأعتقد حقاً أنك تنعم بإضاعة الوقت »

ـ « لقد استدعيتك من قبل ياأماه ... ولكنك كنت أبداً مشغولة أو منعزلة. إنى أريد أن أسر إليك بأمر هام »

ـ « ماهو ياولدى العزيز ؟ أسرع ! ولم لم ترسله إلى بالبريد الهوائى ؟ »

ـ « لأنى فضلت أن أقوله ، إنى أريد . . . »

ـ « حسناً » .

ـ « إنى أريد أن تحضرى لرؤيتى » .

وكانت (فاشتى) تراقب وجه ولدها فى القرص المستدير ، فصاحت محتدة :

ـ « ولكنى استطيع أن أراك ، فماذا تريد أكثر من ذلك؟ »

قال كيونو : « أريد أن أراك، ولكن ليس عن طريق القرص، وأريد أن أتحدث إليك ولكن ليس عن طريق هذه الآلة المزعجة ... »

فقالت أمه وقد انتابها ذعر غامض : « صه ! يجب ألا تتفوه بشيء فى حق الآلة » .

ـ « ولم ؟ »

ـ « لاينبغى ذلك » .

فصاح الابن : « إنك تتحدثين عنها كما لو كانت صنعتها يد إله حتى ليخيل الى أنك تتوجهين إليها بالصلاة إذا ما أصابتك شقوة ، لاتنسى أنها من صنع الرجال، صحيح أنهم رجال عظام ، ولكنهم بشر على أى حال .. إن الآلة شيء عظيم ولكنها ليست كل شيء . إنى لأرى شيئاً يشبهك فى هذا القرص ولكنى لست أراك أنت . وإنى لأستمع إلى صوت شبيه بصوتك فى المسرة ولكنى لاأسمعك أنت ، وهذا هو السبب الذى من أجله أود أن تحضرى ،

تعالى وابق معى ، تعالى لزيارتى فنتقابل وجهاً لوجه وأحدثك بما يساورنى من آمال . »

فردت عليه بأنها لاتكاد تجد وقتاً لزيارته

ـ « إن السفينة الهوائية لاتكاد تستغرق يومين لتطير بك إلى »

ـ « أنى أكره السفن الهوائية »

ـ « ولم ؟ »

ـ « لأنى أكره رؤية الأرض الداكنة البغيضة ، وأمقت البحر والنجوم حين تظلم الدنيا ، فإنى لاتحضرنى أية أفكار وأنا على متن سفينة هوائية »

ـ « وأى نوع من الأفكار يوحى بها الهواء إليك ؟ »

فصمت هنيهة ثم قال : « ألا تعرفين الأنجم الأربعة الكبار التى تكون مستطيلا ، وثلاثة الأنجم المتقارب بعضها من بعض والواقعة فى وسط هذا المستطيل ، ومن هذه المجموعة تتدلى ثلاثة أنجم أخرى ؟

ـ « كلا لا أعرفها . إنى لأكره النجوم ، ولكن أتراها توحى إليك بأية أفكار ؟ ما أبدع هذا ! حدثنى عنه »

ـ « تراودنى فكرة بأن هذه النجوم شبيهة بإنسان »

ـ « لست أفهم ماذا تعنى بهذا »

ـ « أن النجوم الأربعة هى كتفا الرجل وركبتاه أما الثلاثة الأنجم التى فى الوسط فهى شبيهة بالحزائم التى كان يلبسها الرجال ، وثلاثة النجوم المدلاة تشبه السيف ! »

— « تشبه السيف ؟ »

— « لقد حمل الرجال السيوف ليقاتلوا بها الحيوانات ويقاتلوا غيرهم من الرجال الآخرين »

— « إن هذه الفكرة لاتقع من نفسى موقعاً حسناً ، ولكنها حتما فكرة مبتكرة ، متى خطرت ببالك ؟ .

— « فى السفينة الهوائية . . . . »

ثم صمت فجأة ، وقد خيل إليها أنه يبدو مهموما ، ولم تكن متأكدة من ذلك لأن الآلة لاتنقل ألوان المشاعر التى تبدو على الوجه . إنها تعطى فكرة عامة عن الناس . . فكرة تكفى لكل الأغراض العملية ، وهذا ما كان يدور بخلد فاشتى : فإن مسحة النضارة والبشر التى تبين على الوجه والتى تعتبرها فلسفة باطلة شائنة روح اللقاء وأهم عناصره بين الناس ، أغفلته الآلة إحقاقا للحق كما يغفل منتجو الفاكهة الصناعية فى إنتاجهم تلك المسحة من النضارة التى فى العنب الطبيعى ؛ فلقد ألف الجنس البشرى منذ أمد طويل أن يرضى ويقنع بحد محدود من الجودة .

ثم استطرد كيونو قائلا : «إنى لأود حقاً أن أرى هذه النجوم مرة ثانية، إنها لأنجم عجيبة ، إنى لا أحب أن أراها من السفن الهوائية بل من سطح الأرض كما كان يفعل أجدادنا منذ آلاف السنين ، إنى لأحب أن أزور سطح الأرض » .

فانتابها الذعر للمرة الثانية ومضى كيونو يقول :

« أماه .. يجب أن تأتى إلى ، ليس ذلك إلا لتوضحى لى الضر من زيارتى لسطح الأرض . »

فتمالكت نفسها وقالت : « لاضرر من ذلك ، ولكن ليس منه نفع يرتجى .. إن سطح الأرض تراب وطين ولم تبق به نسمة من حياة وستكون فى حاجة إلى آلة التنفس وإلا أهلكتك برودة الهواء الخارجى ، ومن تعرض للهواء الخارجى مات لساعته » .

— « إنى أعلم هذا ، وسأحتاط لذلك بطبيعة الحال الاحتياط كله »

— « وفضلا عن ذلك ... »

— « ماذا ؟ »

وقد تروت واختارت ألفاظها بحذر : فإنها تعلم أن لولدها مزاجا غريباً وأنها تود أن تثنيه عن هذه الرحلة فقالت مؤكدة : « إن ذلك مخالف لروح العصر »

— « هل تعنين بهذا أنه مضاد للآلة ؟ »

— « من ناحية ما ولكن ... »

وهنا أخذت صورته تمحى من القرص الأزرق فنادته قائلة :

— « كيونو .. ! »

ولكنه كان قد عزل نفسه ، وقد أحست فاشتى بالوحـــدة برهة قصيرة .

ثم أطلقت الضوء فى الحجرة فانعشها منظرها وقد غمرها الإشعاع وبدت مرصعة بالأزرار الكهربية ، وكانت الأزرار والمحولات فى كل ناحية منها . . أزرار لطلب الطعام وأخرى للموسيقى وغيرها للملابس ، وكان هناك زرللحمام الساخن . . إذا ماضغط برز فى وسطالحجرة حوض من الرخام الصناعى ممتلىء حتى حافته بسائل دافى مزيل للرائحة الكريهة ، كما كان بها زر آخر للحمام البارد ، وزر آخرللاستماع إلى المنتجاتالأدبية ، وكانت هناك بطبيعة الحال أزرار أخرى يمكنها أن تتصل بأصدقائها عن طريقها ، وكانت الحجرة على صلة بكل من يعنيها أمرهم فى العالم ، ولو أنها لم تكن تحتوى على شيء .

وكانت الحركة التالية لفاشتى أنها أوقفت عمل المفتاح العازل ، فانهمر عليها سيل مما تجمع خلال الثلاث الدقائقالأخيرة فدوت الحجرة بصوت الأجراس ، وصوت الأنابيب الموصلة للحديث . . . ماذا يشبه الطعام الجديد ؟ وهل تنصح بتناوله ؟ وهل عرضت لها أخيراً أية آراء ؟ . . . وسألها أحدهم هل يمكنه أن يدلى لها بآرائه ؟ وهلتستطيع أن تحدد موعداً لزيارة دور الحضانة العامة فى موعد مبكر ؟ ... عليها أن تحدد اليوم والشهر .

وقد أجابت عن معظم هذه الأسئلة وهى محنقة ، فقد أصبح هذا الحنق خلة تنمو مع الزمن فى عصر السرعة هذا ، ثم وصفت الطعام الجديد بأنه شنيع وقالت إنها لاتستطيع زيارة دور الحضارة العامة بسبب كثرة التزاماتها ، وإنه ليس لديها أية أفكار من عندها . . . غير أنها زودت لتوها برأى يقول صاحبه بأن أربعة أنجم وثلاثة فى الوسط

تشبه إنسانا . وإنها لتشك فى أن يحمل هذا الرأى أى شىء له قيمة ... ثم قطعت اتصالها بمحدثيها فقد حل ميعاد إلقاء محاضرتها عن « الموسيقى الاسترالية »

إن ذلك النظام الردىء للاجتماعات الشعبية كان قد نبذ من أزمان فما تحركت فاشتى ولا تحرك المستمعون إليها من حجراتهم ، وقد تحدثت إليهم وهى جالسة فى مقعدها كما استمعوا إليها ورأوها بوضوح كاف وهم فى مقاعدهم . وقد استهلت حديثها بوصف فكاهى للموسيقى فى العصر السابق للعصر المغولى ، واستطردت تصف الانتشار الواسع للغناء الذى أعقب الغزو الصينى ... فمع أن أساليب أى ـ سان ـ سو ومدرسة برسبين كانت بدائية مبعدة فى القدم إلا أنها تشعر على حد قولها بأن دراستها يمكن أن تكون ذات غناء للموسيقيين المعاصرين ؛ فان فيها طرافة ، وفوق ذلك تحمل خواطر وآراء ، وقد استقبلت محاضرتها التى استغرقت عشر دقائق استقبالا حسنا. وعند ختامها استمعت هى ومن كانوا يستمعون إليها إلى محاضرة عن البحر .. إن البحر يوحى بافكار وآراء

لقد كان المحاضر قد ارتدى فوق ملابسه آلة التنفس، وتفقد البحر منذ عهد قريب .. وبعد ذلك تناولت طعامها ، وتحدثت إلى أصدقائها ، وأخذت حماما وتحدثت مرة أخرى ثم آوت إلى فراشها .

ولم يكن الفراش ليروقها ؛ فقد كان رحيباً جداً وكانت هى تتوق إلى فراش صغير... لقد كانت شكواها عديمة الجدوى ؛ فإن الأسرة فى جميع أنحاء العالم كانت ذات سعة واحدة وللحصول على بديل آخر كان الأمر

يستدعى تغييراً عظيما فى أنظمة الآلة . . ثم عزلت فاشتى نفسها ، وقد كان هذا أمراً لامندوحة عنه إذ لم يكن هناك ليل ولا نهار تحت الأرض، واستعرضت الأحداث التى مرت بها منذ أن طلبت فراشها آخر مرة ... أما عن الأفكار فلا يكاد يوجد شىء منها ، وأما عن الأحداث فهل تكون دعوة كيونو لها حدثا ...؟

وكان على مقربة منها على نضد القراءة كتاب واحد خلص من نثار القرون ... انه كتاب الآلة ، ويحوى تعليمات لكل طارىء يمكن أن يحدث . فان شعرت بحر أو ببرد أو بسوء هضم أو أغلق عليها فهم كلمة ، لجأت إلى هذا السجل الذى يدلها على أى الأزرار تضغط ... لقد أصدرته « اللجنة المركزية » وكان مجلداً تجليداً فاخراً جريا على العرف السائد .

ولما جلست فى فراشها ، أخذت الكتاب بتجلة واحترام ثم أدارت بصرها فى أنحاء الحجرة المتوهجة كما لو كان هناك من يراقبها ... ثم تمتمت وقد غلب عليها بعض الاستحياء واستخفها شىء من الجذل : « إيه أيتها الآلة ! إيه أيتها الآلة ! » ورفعت السجل إلى شفتيها وقبلته ثلاثا وأحنت رأسها ثلاثا . . وقد استمتعت ثلاث مرات بنشوة الرضى والاستسلام ، ولما أدت فريضتها قلبت صفحات السجل إلى صفحة ١٣٦٧ وهى تبين مواعيد رحيل السفن الهوائية من الجزيرة التى تعيش هى تحت تربتها فى نصف الكرة الجنوبى إلى الجزيرة التى يعيش ولدها تحتها فى نصف الكرة الشمالى ، وفكرت فاشتى ... وقالت تحدث نفسها « ليس لدى وقت لذلك » . ونامت بعد أن أعتمت الحجرة ثم استيقظت وأضاءتها ، وأكلت

وتبادلت الآراء مع أصدقائها واستمعت إلى الموسيقى، ثم أصغت إلى بعض المحاضرات وأعتمت الحجرة ونامت . . . وكانت الآلة تطن طنيناً أبدياً من فوقها، ومن تحتها، ومن حواليها، وما كانت تحس بذلك الضجيج فقد ولدت وهو يطن فى أذنيها . . وكانت الأرض تحملها وهى تطن مسرعة عبر السكون، تميل بها تارة صوب الشمس غير الظاهرة وطورا صوب النجوم المحتجبة ... ثم استيقظت وأضاءت الحجرة وخاطبت ولدها :

— « كيونو ! »

فأجابها : « لن أتحدث إليك حتى تأتى إلى »

فقالت له : « هل صعدت إلى الأرض منذ أن تحدثنا أخيراً ؟ »

ولـكن صورته تلاشت من القرص

واستشارت الكتاب للمرة الثانية، واستلقت على مقعدها وهى ثائرة الأعصاب خافقة القلب، وقد بدت للرائى كما لو كانت بغير شعر ولا أسنان. وفى الحال وجهت كرسيها إلى الحائط وضغطت زراً لم تألف استعماله وارتج الحائط وانفصل على مهل ... ورأت خلال الفتحة نفقاً ينحنى انحناء خفيفاً فلا ترى العين مداه ؛ فإن أرادت أن تذهب لرؤية ولدها فهاهنا بدء الرحلة . . .

ولقد كانت تعلم كل شىء عن نظام الاتصال ؛ إذ لم يكن فيه شىء خفى، وما عليها إلا أن تطلب مركبة تسرع بها إلى نهاية النفق حتى تصل إلى

المصعد المتصل بمحطة السفن الهوائية ، وقد كان هذا النظام متبعاً لسنين عدة قبل أن تتوطد مكانة الآلة فى العالم بأسره . ولاريب أن فاشتى قد درست المدنية التى سبقت مدنية عصرها ، تلك المدنية التى أخطأت وظائف الجهاز الآلى فاستخدمته لحمل الناس إلى الأشياء بدلا من حمل الأشياء إلى الناس . . . ياللتلك الأزمنة القديمة العجيبة ، عندما كان الناس ينتقلون لتغيير الهواء بدل أن يغيروا الهواء داخل حجراتهم ! ومع هذا فقد انتابها الذعر عند رؤية النفق . إنها لم تره منذ ولدت طفلها الأخير . إنه لينحنى ولكن ليس كما شهدته ، وإنه ليتلألأ بالأضواء ولكنه لم يصل إلى الدرجة التى ألمع إليها أحد المحاضرين ، وقد غلب عليها فزع التجربة المباشرة فأجفلت وارتدت إلى حجرتها ، وانطبق الحائط ثانية . . .

واستدعت ولدها وهتفت: « كيونو ، لا أستطيع أن آتى لزيارتك؛ فإنى لست بخير »

وفى التو واللحظة هبط عليها من السقف جهاز ضخم ، وبطريقة آلية أدخل فى فمها مقياس الحرارة ووضع على قلبها المسماع واستلقت هى لا حول لها ولا قوة ، وبدأت الضمادات الباردة تمسح جبينها فقد كان كيونو قد أبرق إلى طبيبها .

وهكذا كانت المشاعر الإنسانية لا تزال تتعثر هنا وهناك فى باطن الآلة . وشربت فاشتى الدواء الذى قذف به الطبيب داخل فمها ، ثم ارتدت مجموعة الآلات إلى السقف، وعندئذ ارتفع صوت كيونو يسألها عن حالها ،

فردت عليه قائلة إنها تشعر بتحسن ، ثم قالت مغضبة : « ولم لا تأتى إلىّ بدل أن أذهب إليك ؟ »

ــ « لأنى لاأستطيع أن أترك هذا المكان »

ــ « لمــــاذا ؟ »

ــ « لأنه قد يحدث شىء رهيب فى أية لحظة »

ــ « ألم توفق بعد فى الوصول إلى سطح الأرض ؟ »

ــ « لا »

ــ « إذن ، ما الخبر ؟ »

ــ « لن أحدثك بذلك عن طريق الآلة »

ثم أخذت فاشتى تعاود سيرتها . .

ولكنها بدأت تفكر فى كيونو وهو طفل رضيع . . فى ميلاده ، ثم فى إقصائه عنها إلى دور الحضانة العامة ، وزيارتها الوحيدة له هناك ، وفى زياراته لها التى توقفت عندما خصصت له الآلة حجرة فى الجانب الآخر من الأرض . يقول سجل الآلة عن الوالدين وواجبــــاتهما إنها تتوقف فى اللحظة التى يولد فيها الطفل صفحة ٤٢٢٣٢٧٤٨٣ .

وهذا حق ، ولكن كيونو كان له طابعه الخاص وكذلك الحال مع باقى أبنائها . ومهما كان الحال فعليها أن تغامر بالرحلة إذا كان كيونو

يشتهى ذلك ، ثم إن شيئاً رهيباً يمكن أن يحدث . . فماذا يعنى بهذا ؟ إنه هذر شاب يافع بلا ريب ، ولكن عليها أن تذهب . وللمرة الثانية ضغطت ذلك الزر الذى لم تألف استعماله وانفرج الحائط ورأت النفق ينحنى متواريا عن البصر ، فنهضت وقد احتضنت الكتاب ومضت إلى الرصيف وهى تتمايل فى مشيتها واستدعت المركبة، وأقفلت الحجرة وراءها . لقد بدأت الرحلة إلى نصف الكرة الشمالى .

لقد كانت الرحلة هينة تماما ؛ فان العربة اقتربت وبها مقاعد ذات مساند شبيهة بما عندها . ولما أشارت إليها توقفت ، فدلفت مترنحة إلى المصعد . وكان بالمصعد مسافر واحد وهو أول مخلوق تراه وجهاً لوجه منذ أشهر ، فقد كان النزر اليسير يسافر من الناس فى تلك الأيام . لأن تقدم العلم جعل كل الأمكنة سواء فى جميع أنحـــاء الأرض ، والاتصال السريع الذى كانت المدنيـة السابقة تأمل منه الكثير انقضى مغلوبا على أمره ، فماذا يعنى الذهاب إلى بكين وهى شبيهة تمام الشبه بمدينة شروزبرى ، ولماذا العودة إلى شروزبرى وهى مشابهة تمام الشبه لبكين ، وقلما كان الناس يحركون أجســامهم وكانت الروح هى مركز القلق والاضطراب .

كانت الخطوط الجوية للسفن الهوائية أثراً من آثار العهد السابق ، وقد احتفظ بها لأن الإبقاء عليها كان أسهل من القضاء عليها أو الإقلال منها ولكنها الآن كانت قد جاوزت إلى حد كبير حاجة السكان فكانت المركبة تلو المركبة ترتفع من مراكز قذف الطائرات فى راى أو كرست

تشيرس (إنى أستعمل الأسماء الأثرية) وتسبح فى الفضاء المزدحم ثم تصطف بنظام فى مرافىء الجنوب خالية من الركاب . .

وكان نظام السير قد بلغ مبلغاً عظيماً من الدقة بغير مراعاة لحالة الجو حتى إن السماء كانت كأنها كاليد سكوب[1] عظيم الاتساع تبدو عليها نفس الأشكال والنماذج فى دورات متتالية سواء صحت السماء أو غامت . وكانت السفينة التى سافرت عليها فاشتى تبدأ مسراها تارة عند الغروب ، وتارة عند الفجر ولكنها كانت تمر دائماً فوق ريمز وتجاور السفينة التى تعمل بين هلسنجفوز والبرازيل .. وفى كل ثالث مرة تعتلى فيها جبال الألب يعبر أسطول بلرمو طريق مسارها من خلفها . وما عاد الليل أو النهار ولاالريح أو العواصف ولا المد أو الجزر ولا الزلازل تقف حائلا فى وجه الإنسان . لقد استطاع أن يسخر الهولة[2] لأمره وأصبح الأدب القديم بكل ما يحويه من تمجيد للطبيعة أو إظهار الخشية منها يقرع الآذان وقد بدا زيفه كأنه هذر أطفال .

ومع هــذا فما كادت فاشتى ترى جناح السفينة الضخم وقد تلوث بتعرضه للهواء الخارجى حتى عاودها الفزع من التجربة المباشرة ، ولم تكن هذه السفينة شبيهة تمام الشبه بما رأته منها فى السينماتو فوت[3] ، فقد كانت ذات رائحة ، ولم تكن بالرائحة النفاذة أو الكريهة

---

(١) Kaleidoscope تلك اللعبة التى ترى بها عددا لا نهاية له من الالوان والاشكال المتماثلة .

(٢) كناية عن تسخيرة لكل قوى الطبيعة الجبارة .

(٣) Cinematophote لعلها شىء يشبه التلفزيون .

ولكنها رائحة على أى حال ، فلو أنها أغمضت عينيها لأحست أن شيئاً جديداً عليها قد اقترب منها . وكان عليها أن تمضى إليها من المصعد وأن تكون هدفاً لأنظار المسافرين الآخرين ؛ وقد أسقط الرجل الذى فى المقدمة كتابه ولم يكن هذا بأمر ذى بال ولكنه أزعجهم جميعاً ، ولو أن الكتاب قد سقط داخل حجرة من الحجرات لرفع من الأرض بطريقة آلية . ولكن السلم المؤدى إلى السفينة الهوائية لم يكن معداً ذلك الإعداد وبقى السجل المقدس راقداً بلا حراك ، ثم توقفوا وهذا حادث ما كان يمكن لأحد أن يتنبأ به ؛ فإن الرجل بدل أن يلتقط كتابه أخذ يتحسس عضلات ذراعه ليرى كيف خانته فى حمل كتابه . حينئذ قال أحد المسافرين مفصحاً « إننا سنتأخر » فهرعوا إلى ظهر السفينة ، وكذلك فعلت فاشتى وقد وطئت فى طريقها صفحات السجل .

وقد ازداد قلقها وهى فى داخل السفينة ، وكانت الإجراءات عتيقة الطراز غير مهذبة حتى إن الخدمة فى السفينة كانت تقوم بها أنثى ، وكان على فاشتى أن توجه إليها طلباتها فى أثناء الرحلة ... وقد كان هناك حقاً رصيف متحرك يدور بطول السفينة وعلى هذا فقد كان عليها أن تسير منه إلى حجرتها بالسفينة . وكان بعض حجرات السفينة يفضل البعض الآخر غير أن حجرتها لم تكن أفضلها ، ولقد خيل إليها أن المضيفة لم تعدل بينها وبين غيرها فانتابتها سورات الغضب ... وانطبقت الصمامات الزجاجية فما كان فى مقدورها أن تنكص على عقبيها ، وقد رأت المصعد الذى صعدت فيه فى نهاية الممشى . . رأته هابطاً صاعداً بهدوء وهو خال ، وكانت الحجرات تقع فى أسفل هذه الممرات المكسوة بالقرميد اللامع

طبقات بعضها فوق بعض ضاربة فى باطن الأرض إلى مدى بعيد وفى كل حجرة من هذه الحجرات يجلس أحد المخلوقات البشرية وهو يأكل أو ينام أو ينتج أفكاراً . وكانت حجرتها الخاصة مدفونة على عمق كبير فى هذه الخلية . لقد غلب عليها الخوف فتمتمت : « إيه أيتها الآلة . . . أيه أيتها الآلة » ثم احتضنت كتابها تربت عليه وتدلله فسرى عنها .

ثم أخذت جوانب الممشى تذوب فى بعضها البعض وتضمحل كما تذوب المسالك والممرات عندما تتراءى لنا فى الأحلام . واختفى المصعد ... أما الكتاب الذى كان قد أسقطه الرجل ، فقد انزلق إلى اليسار وتوارى ثم تدافعت على الجوانب قوالب القرميد المصقول كالسيل المتدفق ، ثم سمع صرير خفيف ، واندفعت السفينة الهوائية خارج النفق محلقة فوق مياه المحيط فى المناطق المدارية ...

كان الوقت ليلا وقد استطاعت أن ترى ساحل سومطرة هنيهة من من الزمن تحف به الأمواج ذات الضياء الفسفورى ، وتتوجه المنائر وهى لاتزال ترسل حزماً ضوئية لايلتفت إليها. ثم توارت أيضاً هذه الأضواء ولم يشغل انتباهها إلا النجوم ، فلم تكن ساكنة بل كانت تترجح ذهاباً وجيئة فوق رأسها وتتزاحم وتتدافع من كوة إلى كوة وكأنما الكون بأسره هو الذى يميل وليست السفينة الهوائية. وكما يحدث دائماً فى الليالى الصافية بدت النجوم تارة بارزة مجسمة وطوراً كأنما رسمت على سطح مستو ومرة مجتمعة طبقات بعضها فوق بعض فى الفضاء غير المحدود وطوراً تحجب وراءها اللانهاية ، ذلك الحاجز الذى يحد منذ الأزل أخيلة الرجال . وفى كل حالة من هذه الحالات كان مرأى هذه النجوم لايطاق

ولا يحتمل فهتف المسافرن بغضب : « هل فرض علينا أن نسافر فى الظلام ؟ » فقامت المضيفة الغافلة وأدارت مولد الضوء واستدلت الستائر المصنوعة من المعدن اللدن فإنه لما بنيت السفن الهوائية كانت الرغبة فى النظر المباشر إلى الأشياء لاتزال تخالج نفوس الناس ولهذا بقى ذلك العدد الزائد عن الحد عن الكوى والنوافذ التى كانت لأولئك الذين تحضروا وارتقت أذواقهم مبعثاً للضيق ينتاب كلا منهم بقدر ، وحتى فى الحجرة التى كانت بها فاشتى اختلس أحد النجوم النظر خلال ثلمة فى الستر ، وبعد سويعات من النوم المضطرب أزعجها ضوء لم تألفه . . . لقد كان ضوء الفجر !

وكانت كلما أسرعت السفينة صوب الغرب زادت سرعة الأرض فى دورانها نحو الشرق وهى تجذب فاشتى ورفاقها صوب الشمس . لقد كان فى مقدور العلم أن يطيل أمد الليل ولكن لوقت قصير ، ولقد ولت تلك الآمال العريضة فى التعادل مع الدورة النهارية للأرض ... ولت مع آمال كانت أبعد منها منالا . . . لقد كانت مجاراة الشمس فى سرعتها أو نيل قصب السبق عليها هدف المدنية السابقة لهذا العصر . وقد شيدت لها طائرات السباق لتحقيق هذا الغرض تسير بسرعة جبارة يسوقها عباقرة ذلك الزمان . . . ومضت تدور بهم صوب الغرب . . . تدور . . . وتدور صوب الغرب . . . تدور وسط تهاليل البشرية ، ولكن عبثاً !

فإن الأرض مضت صوب الشرق أشد إسراعا . وحدثت الحوادث الفاجعة وقد أعلنت «لجنة الآلة» — وكانت إذذاك قد بلغت أوج المجد —

أن هذا الطراد غـــير مشروع ولايتفق وأصول الميكانيكا وعقوبته التشريد .

وستحدث عن « عقوبة التشريد » بمزيد من الإيضاح فيما بعد .

لقد كانت اللجنة بلاريب على حق . ومع هذا فان محاولة قهر الشمس أثارت لآخر مرة اهتمام الجنس البشرى بالأجرام السماوية أو بأى شيء آخر . لقد كانت هى المرة الأخـيرة التى تكاتف فيها الناس للتفـكير فى إيجاد طاقة خارجة عن نطاق هذا العالم . . لقد انتصرت الشمس ، ومع ذلك فإن انتصارها هذا كان خاتمة ســيطرتها الروحية فأصبح الفجر والزوال والشفق وطريق الأبراج لاأثر لها فى حياة الناس أو على عواطفهم، واقتصر العلم على الأرض وركز نفسه على المشاكل التى كان موقناً من إيجاد حلول لها .

لذلك اغتاظت فاشتى عندما وجدت أن لمسات من الأضواء الوردية قد غزت حجرتها . وقد حاولت أن تثبت الستر ولـكنه أفلت منها ورأت خلال الـكوة سحباً وردية صغيرة تترجح على بساط أزرق ، ولما صعدت الشمس فى الأفق دخل ضياؤها عموديا وغمر جدلر الطائرة كأنه بحر ذهبى وكان هذا الضياء يعلو ويهبط مع حركة السفينة كما تهبط الأمواج وتعلو ، ولـكن السفينة كانت تسير قدما بثبات كما ينحدر المطر ، ولو أن فاشتى لم تحرص على نفسها لأصيب وجهها ، وقد انتابتها رجفة من الفزع فاستدعت المضيفة التى ارتاعت بدورها ولم تستطع أن تفعل شيئاً ، ولم يكن من عملها أن تصلح الستر ، فلم تستطع إلا أن تشير عليها بأن تغير حجرتها وهذا ماتهيأت له فاشتى .

ولقد كان الناس متشابهين شبهاً تاما فى جميع أنحاء العالم ، ولكن مضيفة السفينة خرجت قليلا عن المألوف،وقديكون ذلك بسبب واجباتها الشاذة ؛ فكثيراً ما كانت ملزمة بأن تشافه المسافرين بالكلام وجها لوجه فأكسبها ذلك نوعاً من الخشونة وغرابة الأطوار،فإنفاشتىعندما انحرفت عن أشعة الشمس وهى تصرخ تصرفت معها المضيفة تصرفا همجياً . . . لقد مدت يدها لتسندها فصاحت فاشتى « كيف تجرئين على ذلك ؟ هل نسيت نفسك ؟» فاضطربت المرأة واعتذرت لكونها لم تتركها تقع ؛ فقد كان الناس لا يمس أحدهم الآخر على الاطلاق . . . لقد انقرضت هذه العادة فى عصر الآلة !

ثم سألت فاشتى بتشامخ وكبرياء : « أين نحن الآن ؟ »

فقالت المضيفة وهى حريصة على أن تظهر بمظهر الوصيفة المؤدبة : « نحن الآن فوق آسيا »

— « آسيا ؟ »

— « معذرة لطريقتى السوقية فى الحديث فقد اعتدت أن أسمى الأمكنة التى نمر فوقها بأسمائها غير الميكانيكية »

— « نعم أنا أذكر آسيا فقد أتى منها المغول » .

— « أن تحتنا فى العراء تقوم مدينة كانت تدعى سملا فى يوم من الأيام .

— « هل سمعت يوما عن المغول وعن مدرسة برسبين ؟ »

— « كلا »

— « أن برسبين تقوم أيضاً فى العراء »

— « وهذه الجبال إلى اليمين دعينى أريك إياها » وأزاحت جانباً ستراً معدنياً فانكشفت سلسلة جبال هيمالايا . لقد كانت تسمى يوما ما « سقف العالم »

— « ياله من اسم سخيف ! »

— « يجب أن تذكرى أنه قبل فجر المدنية كان يبدو لهم أن هناك حائطاً لايخترق يلامس النجوم . وكان المفروض أن الآلهة وحدها هى التى تستطيع أن تسكن قمم هذه الجبال . . اشد ما تقدمنا ! شكراً للآلهة ! »

وهتفت فاشتى « لشد ما تقدمنا ! شكراً للآلهة ! »

وردد نفس هذه الكلمات ذلك المسافر الذى كان قد أسقط كتابه فى الليلة السابقة والذى كان فى ذلك الوقت واقفاً فى الممر ثم سألت فاشتى :

— « وهذه المادة البيضاء فى شقوق الجبال ؟ أى شىء تكون ؟ »

— « لقد أنسيت اسمها »

— « أرجو أن تسدلى الستر على هذه النافذة . . إن رؤية الجبال لاتوحى إلى بأية أفكار »

وكانت السفوح الشمالية لجبال الهيمالايا فى ظلال معتمة ، أما المنحدرات الهندية فقد كانت تغمرها أشعة الشمس ، وكانت الغابات قد أبيدت فى الحقبة الأدبيـــة لاستعمالها فى صناعة العجائن التى يصنع منها الورق، وأخذت الثلوج تستيقظ لتستقبل جلال الصباح والسحب لاتزال معلقة على صـــدر جبال كـنشنج جونكا . وكانت أطلال المدن تتراءى فى السهل ، والأنهر الآخذة فى النقصان تزحف بجانب الجدران . وعلى جوانب هذه الجدران كانت تظهر أحياناً معالم مراكز قذف الطائرات وهى التى تميز مدن هذه الأيام ، وفوق هذا المنظر كله كانت السفن الهوائية وهى تشق طريقها ويتقاطع بعضها مع البعض بجرأة لاتصدق وترتفع فى غير اكتراث عندما ترغب فى تجنب المتاعب التى تصادفها فى طبقات الجو السفلى لـكى تعبر سقف الدنيا .

وقد رددت المضيفة مرة أخرى : « حقاً لشدما تقدمنا ! والفضل فى ذلك للآلة » وجذبت الستر المعدنى فحجبت جبال هيمالايا ، ومر ذلك اليوم بتثاقل مضن ، وجلس كل مسافر فى حجرته متجنباً غيره من المسافرين مدفوعا بنفور يكاد يـكون جسدياً،وكلهم يتوق إلى أن يعود مرة أخرى إلى مكانه تحت سطح الأرض ، وكان من بينهم ثمانية أو عشرة من الذكور الصغار خرجوا من دور الحضانة العامة ليسكنوا حجرات أولئك الذين ماتوا فى أنحاء العالم . . . أما الرجل الذى أسقط كتابه فقد كان فى طريق عودته إلى بيته ، لأنه كان قد أرسل إلى سومطرا لـكى يعمل على تـكاثر الجنس البشرى . وقد كانت فاشتى هى المسافرة الوحيدة التى تسافر بنـاء على رغبتها الخاصة ، وعندما انتصف النهار ألقت فاشتى نظرة أخرى

إلى الأرض ، وكانت السفينة الهوائيـة تعبر إذ ذاك سلسلة أخرى من سلاسل الجبال ، وقد عاقتها السحب فلم تر منها إلا النزر اليسير ، وكانت كتل من الصخور السوداء تبدو كأنما تحوم من تحتها فتتـآلف مع بعضها البعض في غير وضوح ضاربة إلى لون أدكن، وكانت هذه الصخور ذات أشكال عجيبة فكان أحـدها شبيها برجل منبطح على الأرض وتمتمت فاشتى : « لا أفكار ترتجى هنـا » . وحجبت بالستر المعدنى جبال القوقاز .

وفى المساء تطلعت مرة أخرى ، لقد كانوا يعبرون بحراً ذهبي اللون به شبه جزيرة واحدة وكثير من الجزر الصغيرة .

وأعادت فاشتى قولها « لاأفكارترتجى‌هنا .. » وحجبت بلاد اليونان وراء الستر المعدنى .

أجهـــزة الإصــلاح

وقد استعملت فاشتى كل وسائل النقل من ممرات ومصاعد وسكك حديدية تحت الأرض وأرصفة وأبواب متحركة مارة بكل الخطوات التى مرت بها عند بدء ارتحالها ولكن فى اتجاه معكوس ... حتى وصلت إلى حجرة ولدها التى تشابه حجرتها مشابهة تامة ، فقر فى روعها أن زيارتها هذه كانت نافلة . الأزرار والمفاتيح ومنضدة القراءة والسجل ودرجة الحرارة والضياء . . كلها كانت شبيهة بما عندها . وإن كان كيونو وهو بضعة من لحمها يقف بقربها أخيراً فأى كسب فى هذا ؟ ولقد ردتها تربيتها العالية عن أن تصافحه بيدها !

قالت وقد أعرضت عنه بعينيها :

ــ « ها أنذا ... لقد قاسيت رحلة مضنية،وأخرت كثيراً من تقدمى الروحى ، وإنه لأمر لا يستحق كل هذا العناء يا كيونو ... لا يستحق كل هذا العناء . إن وقتى جد ثمين وقد كاد ضوء الشمس أن يمسنى ، وقابلت أرذل الناس ... ولست أستطيع التوقف هنا إلا دقائق قلائل

فصرح بما تريد أن تقول فإنى يجب أن أعود.»

فقال كيونو : « إنى هددت بعقوبة التشريد .

وهنا تطلعت إليه فاستطرد قائلا :

— « لقد هددت بعقوبة التشريد ولم أستطع أن أخبرك بهذا عن طريق الآلة».

— « إن عقوبة التشريد معناها الموت . إن الضحية يعرض للهواء الحوى الذى يهلكه » .

— « لقد خرجت إلى سطح الأرض منذ أن حدثتك آخر مرة . ووقع ذلك الشيء الرهيب .... واكتشفوا أمرى » .

فهتفت فاشتى « ولكن لماذا لا ينبغى لك أن تخرج إلى سطح الأرض؟ إن زيارة سطح الأرض تصرف قانونى تماما ولا يتعارض مطلقاً مع تقاليد الآلة ... لقد كنت أستمع منذ عهد قريب إلى محاضرة عن البحر ، ولا اعتراض على ذلك . ويمكن للراغب فى هذا أن يطلب جهاز التنفس ويحصل على إذن بالخروج ، ولو أن هذا لا يفعله أولئك الذين يفكرون تفكيراً روحياً ، وقد كنت رجوتك ألا تفعل هذا . ولكن ليس هناك أى اعتراض قانونى على هذا العمل .

— « إنى لم أحصل على إذن بالخروج » .

— إذاً . كيف خرجت إلى سطح الأرض ؟ »

— « لقد وجدت لنفسى مخرجا » .

ولم تستطع فاشتى أن تفهم ما يعنيه فاضطر أن يعيد ما قاله .

وهمست فاشتى : « وجدت لنفسك مخرجا ... ؟ ولكنك بذلك قد ارتكبت خطأً

— « و لِمَ ؟ »

وصدمها هذا التساؤل صدمة تفوق حد الوصف . فى حين أجابها كيونو ببرود :

— « لقد بدأت تعبدين الآلة ... وإنك لتظنين أنها زندقة منى أن أجد لنفسى مخرجا ... وكان هذا نفس اعتقاد اللجنة عندما هددتنى بعقوبة التشريد ..

عند ذلك غلب عليها الحنق وصاحت : « ليس هناك شىء أعبده فانى قد بلغت أعلى مراتب التقدم . ولم يدر بخلدى أنك زنديق فما تبقى شىء اسمه دين . إن جميع المخاوف والخرافات التى كان لها وجود فى يوم من الأيام قضت عليها الآلة قضاء مبرما ، إنما عنيت أن إيجاد مخرج لك بنفسك كان .. ومع ذلك فليس هناك من مخرج جديد »

— « هذا ما افترضه الناس دائما »

— «هذا باستثناء مراكز قذف الطائرات وهذه تحتاج إلى إذن بالخروج . إن الخروج إلى سطح الأرض شىء مستحيل » هكذا يقول السجل .

— « إذن فالسجل على خطأ ؛ فلقد خرجت إلى سطح الأرض على قدمى »

لقد كان كيونو يمتلك قوة بدنية خاصة .

ولقد كان أمراً شائنا فى تلك الأيام أن يكون الانسان قوى العضلات . وكان كل طفل يفحص عند ميلاده ثم يقضى بالهـــلاك على من ينتظر أن تـكون لهم قوة تزيد على الحد المناسب . ولقد يعترض على ذلك المحبون لخير البشرية ، ولـكن ليس من الرحمة الحقة فى شيء أن يعيش قوى البنية ؛ فانه لن يشعر أبداً بالسعادة فى ظل هذه الحياة التى هيأتها له الآلة ، ولسوف يحن إلى أن يتسلق الأشجار ويستحم فى الأنهار ويختبر جلده وقوة احتماله فى التلال والمروج . يجب أن تـكون هنـاك ملاءمة بين الإنسان وبيئته . أليس كذلك . . . ؟ فى فجـــر المدنية كان الضعاف يعرضون للهلاك فوق جبل تايجتس ولما اكتمل ازدهار المدنية كان على الأقوياء أن يموتوا ميتة لا يشعرون فيها بألم ، وذلك حتى تتقدم الآلة وترقى . . . وتتقدم وترقى على الدوام !

ومضى كيونو قائلا :

ـــ « أنت تعلمين يا أماه أننا قد فقدنا الإحساس بالمسافات ، ونحن نقول إن المسافة قد أبيدت غير أننا فى الحقيقة لم نقض على المسافة بل قضينا على الإحساس بها . . لقد فقدنا جزءاً من أنفسنا وعزمت أنا على أن استرجع ذلك الجزء المفقود ، وبدأت السير صاعداً ونازلا على إفريز سكة الحديد خارج حجرتى . . صاعداً ونازلا حتى وهنت قواى ، وهكذا استعدت معنى « القرب » و« البعد » فالقريب هو المكان الذى أستطيع أن أصل اليه بسرعة على قدمى وليس هو بالمكان الذى يحملنى إليه القطار أو الطائرة فى وقت قصير ، والبعيد هو المـكان الذى لاأستطيع الوصول

إليه بسرعة على قدمى ؛ فمركز قاذفات الطائرات بعيد ولو أننى أستطيع الوصول إليه فى ثمان وثلاثين ثانية إذا دعوت القطار لينقلنى إلى هناك . إن الإنسان هو المقياس ، وكان هـذا أول درس تعلمته . إن أقدام الناس هى مقياس الأبعاد ، وأيديهم هى مقياس للملكية والاستحواذ على الأشياء وأجسامهم مقياس لكل مايحب ويشتهى كما هى مقياس لكل قوة واقتدار . . . ثم اندفعت إلى أبعد من هذا ؛ وذلك عندما دعوتك أول مرة ولم تلبى دعوتى . »

ثم مضى قائلا :

ـ «إن هذه المدينة مشيدة تحت سطح الأرض كما تعلمين . . باستثناء مراكز قذف الطائرات ؛ فهى الوحيدة الناتئة من الأرض . فلما ذرعت الإفريز خارج حجرتى أخذت المصعد إلى الإفريز الثانى وذرعته أيضاً ، وهكذا ذرعت الواحد تلو الآخر حتى وصلت إلى الرصيف الأعلى الذى يليه سطح الأرض . ولقد كانت كل الأرصفة متشابهة تماماً ، وكل ماأفدته من زيارتى لها إنما كان لتنمية الإحساس بالمسافة ولتقوية عضلاتى . وقد كان على أن أقنع بهذا ، وما هو بالشىء الهين ، ولكنى كنت كلما سرت وأمعنت فى التفكير وقر فى نفسى أن مدننا قد بنيت فى وقت كان فيه الناس يتنفسون الهواء الخارجى . وقد كانت هناك فتحات للتهوية من أجل العمال ، فلم أعد أفكر فى شىء إلا فى هذه الفتحات . . أتراها أبيدت وحلت محلها أنابيب الطعام وأنابيب العقاقير الطبية وأنابيب الموسيقى التى أخرجتها الآلة منذ عهد قريب . . أم ترى بقيت آثارها إلى اليوم ؟ لقد كنت على يقين من شىء واحد ، هو أنى إذا وقعت على هذه الفتحات فى مكان

ما فلن يكون هذا إلا فى أنفاق سكة الحديد فى الطابق الأعلى ، أما فى باقى الأمكنة الأخرى فكل فراغ كان له حساب مقدر عندهم .

« انى لأقص عليك قصتى على عجل فلا يدورن بخلدك أننى لم أكن جبانا ، أو أن ردودك على لم تكربنى . انه شيء غير لائق ! إنه لا يتفق وتقاليد الحياة الآلية . إنه ليس من المناسب السير فى انفاق سكك الحديد ... إنى لم أخف أن أطأ قضيباً مكهرباً فألاقى حتفى . لقد خفت شيئاً أكثر غموضاً من ذلك وهو أن أفعل ما لم تحسب الآلة له حساباً ، وحينئذ قلت لنفسى « إن الإنسان هو المقياس » ورحت أسعى . . وبعد زورات عدة لهذه الأنفاق عثرت على فتحة . . . »

« لقد كانت الأنفاق مضاءة بطبيعة الحال وكان النور يشع فى كل مكان.. النور الصناعى، ولم تكن الظلمة إلا استثناء من القاعدة . فعندما رأيت ثغرة سوداء فى صفائح القرميد عرفت أنها حالة شاذة وابتهجت نفسى وأدخلت فيها ذراعى ، ولم أستطع فى بادىء الأمر أن أدخل فيها أكثر من ذلك ، وأخذت أطوح بذراعى وأنا فى نشوة بالغة . ثم أزحت قالباً آخر من القرميد وأدخلت رأسى ، وصحت فى الظلمة : هأنذا آت، هذا ما سأفعله رغم كل شيء ! وتردد صدى صوتى فى أعماق ممرات لانهاية لها وقد بدا لى كأنى أسمع أرواح الموتى من أولئك العمال الذين كانوا يعودون كل ليلة إلى مشاهدة ضوء النجوم وإلى زوجاتهم . . . وكذلك كل تلك الأجيال التى عاشت فى الهواء الطلق كانت تدعونى إليها مرددة : ستصل إلى غايتك ، وإنك لآت الينا . . . . »

ثم توقف عن متابعة حديثه وقد أثارت كلماته عواطفها مع ما تنطوى عليه من تفاهة وسخف . . فإن كيونو كان قد طالب منذ أمد قريب أن يكون أباً ولكن اللجنة أبت عليه ذلك فلم يكن من الطراز الذى تبتغيه الآلة . .

ثم واصل كيونو حديثه :

— « ومر بى قطار كاد يلامسنى ولكنى دفعت برأسى وذراعى فى الفجوة وكنت قد قمت فى ذلك اليوم بما فيه الكفاية فخبوت عائداً إلى الرصيف وهبطت فى المصعد واستدعيت فراشى ، وراودتنى الأحلام . . ويالها من أحلام ! ! ثم استدعيتك مرة ثانية ، وللمرة الثانية أبيت المجىء إلى »

فهزت رأسها وقالت : « لا . . لاتتحدث عن هذه الأشياء المروعة . . إنك بهذا تشقينى . . وإنك لتنبذ المدنية ظهرياً » فقال : « ولكنى استعدت الإحساس بالمسافة . . ولن أهدأ أو أستريح بعد هذا . وقد اعتزمت أن ألج هذه الفجوة وأن أتسلق فتحة التهوية . وهكذا أخذت أمرن ذراعى ، وكنت أقوم يوما بعد يوم بحركات تبعث على السخريه حتى نال منى الألم ، وأصبح فى مقدورى أن أتعلق بيدى وأن أمد ذراعى بوسادة الفراش بضع دقائق . ثم استدعيت جهاز التنفس وبدأت أعمل »

« لقد كان العمل فى أوله سهلا فإن الملاط كان قد تآكل بطريقة ما وسرعان مادفعت فى الفتحة بمزيد من صفائح القرميد وجهدت حتى تسلقت فى أثرها واحتوانى الظلام ... وشعرت أن أرواح الموتى تشد من أزرى وتعمل لراحتى ، ولست أدرى ماذا أعنى بقولى هذا ، ولكنى أذكر فقط ما أحسست به ؛ فلقد شعرت لأول مرة بأننى بعملى هذا قد قدمت

احتجاجاً ضد الفساد . . . . فكما أن أرواح الموتى كانت تشد من أزرى وتعمل لراحتى ، فكذلك كنت أنا أعمل لراحة من لم يولدوا بعد . وهنا تجلى أمامى أن البشرية تنبض بالحياة وأنها تنبض بالحياة عارية مجردة . . . . كيف أستطيع أن أوضح هذا ؟ لقد كانت الإنسانية عارية .. نعم لقد بدت عارية مجردة ؛ فهذه الأنابيب والأزرار والآلات لم تأت معنا إلى هذه الدنيا ، ولن تلحق بنا عندما نرحل عنها وليست هى بذات قيمة كبرى لنا ونحن على قيد الحياة ، ولو أننى كنت قويا لمزقت ما على من اللفائف والأكسية وانطلقت إلى الهواء الخارجى عاريا . ولكن لن يكون هذا من نصيبى وقد لا يكون من نصيب هذا الجيل ، وصعدت ومعى جهاز التنفس وملابس الوقاية الصحية وأقراص التغذية .. وهذا على أية حال خير لى من تركها . . . . »

«لقد كان هناك سلم مصنوع من معدن من معادن العصور الأولى وكان ضوء سكة الحديد يقع على الدرجات السفلى منه ، ووجدت أنه يتجه فى استقامة إلى أعلى متجاوزاً سقط الحجارة التى فى قاع الفتحة وربما كان أجدادنا يصعدون عليه ويهبطون عشرات المرات كل يوم وهم يقومون بالبناء ... وبينما كنت ارتقى السلم أصابت الحافات الخشبية قفازى فمزقت يدى وأدمتها وقد أعاننى الضوء لفترة قصيرة ثم اكتنفنى الظلام . . . »

« والأدهى من ذلك هذا السكون الذى كان يخترق أذنى كأنه سيف . إن الآلة تطن طنيناً ! هل عرفت هذا ؟ »

« وطنينها هذا يسرى فى دمنا . ولعله يوجه أفكارنا ، ومن يدرى ؟

لقد كنت متجهاً إلى ما وراء سلطانها ، وقد فكرت فى نفسى : إن هذا السكون الذى يكتنفنى يعنى أنى مذنب أثيم ، ولكنى كنت أسمع أصواتاً خلال هذا الصمت ، وللمرة الثانية كانت تشد من عزمى . . » ثم ضحك واستطرد قائلا : « لقد كنت فى حاجة إليها ، ولم تمض على لحظة حتى ارتطم رأسى بشىء . . »

فتنهدت فاشتى ، واستمر هو :

ـ « كنت قد وصلت إلى حاجز من حواجز الهواء المضغوط الذى يحمينا من الهواء الخارجى . . ولعلك لاحظت مثيلا لها فى السفن الهوائية . . لقد كنت فى ظلام دامس وقدماى على سلم لا أراه ، ويداى تدميان . ولست أستطيع أن أصف كيف عشت هذه الفترة ، ولكن الأصوات كانت لاتزال تشد من أزرى فأخذت أتحسس مواضع المشابك والمقابض ، وإنى لأظن أن عرض هذا الحاجز كان يقرب من ثمانية أقدام . فمررت بيدى فوقه على قدر ما استطعت فوجدته أملس تماما وقد تحسسته إلى قرب منتصفه إذ قصرت ذراعى عن الوصول إلى المنتصف تماما . . حينئذ سمعت الصوت يقول : اقفز . . إنه لأمر جدير بالمجازفة ، وقد تجد فى الوسط مقبضاً فتتشبث به ، وهكذا تشق لنفسك طريقاً إلينا ، ولو أنك لم تجد مقبضاً فهويت وتناثرت أشلاؤك لكان الأمر رغم ذلك جديراً بالمجازفة ؛ فإنك ستكون قد أتيت إلينا أيضاً على طريقتك . . لذلك قفزت وكان هناك مقبض ، و . . . . »

ثم توقف . . . أما أمه فقد اغرورقت عيناها بالدموع ؛ فقد عرفت أنه قد حان حينه فهل إن لم يمت اليوم فسيموت غداً ؟ ليس لمثل هذا الشخص مكان فى هذا العالم . . . ولقد امترجت شفقتها عليه باشمئزازها منه ، وأحست بالخجل من أنها حملت هــــذا الإبن ، وهى التى كانت دائما موضع تقدير وإكبار، ورأسها ممتلىء بالآراء والأفكار . . أهو حقاً ذلك الصبي الذى علمته كيف يستعمل المحطات والأزرار وأعطته دروسه الأولى فى السجل ؟ إن هذا الشعر الذى شوه شفتيه أبان أنه أخذ يرتد إلى طراز وحشى . . وهذه الردة إلى الأسلاف لن تنال من الآلة هوادة أو شفقة .

ثم تابع هو قصته :

ــ « كان هناك مقبض فتشبثت به . وتعلقت وأنا فى غشية فوق الظلام ، وسمعت طنين الآلة كهمسة أخيرة فى حلم زائل .. وقد بدا لى أن كل الأشياء التى اهتممت لها وكل الناس الذين تحدثت إليهم خلال الأنابيب . بدا لى كل ذلك تافهاً إلى أبعد حدود التفاهة ، وفى أثناء ذلك أخذ المقبض يدور .

إن ثقل جسمى جعل شيئاً يتحرك ، وأخذت أدور ببطء وهنا ليس فى مقدورى أن أصف ما حدث . . لقد كنت مستلقياً ووجهى إلى الشمس ، وأخذ الدم ينبثق من أنفي وأذنى وسمعت زئيراً مخيفاً ، وأما الحاجز فقد قذف به إلى سطح الأرض وأنا متشبث به وأخذ الهواء

الذى نصنعه هنا يفلت خلال الفتحة إلى الهواء الخارجى منبجساً إلى أعلى على هيئة نافورة لجبوت إليه ، ذلك أن الهواء الخارجى يؤذى ويوجع ، وارتشفت جرعات كبيرة من حافة الفتحة . . أما جهاز التنفس فما أدرى أين قذفت به المقادير ، وتمزقت ثيابى ، واستلقيت وشفتاى ملصقتان بالفتحة وارتشفت منها حتى توقف النزف . ولن يكون فى مقدورك أن تتصورى أغرب من ذلك . . تصورى هذه الفجوة فى العشب — وسأعود إلى وصفها بعد لحظة — وقد وصلت إليها الشمس ضعيفة الضياء خلال السحب البيضاء . . وهذا الهدوء الشامل وعدم المبالاة وذلك الإحساس بالفضاء وزئير هوائنا الصناعى الخارج من النافورة يمسح خدى . !

« وسرعان ما اكتشفت جهاز التنفس يعلو ويهبط فوق رأسى وسط نافورة الهواء المتصاعد . وكنت أرى المراكب الهوائية من فوقه على ارتفاع كبير . ولم يكن يطل منها أحد ، ولو فعلوا لما رأونى وأنا ملقى فى مكانى .. وقد تسرب شعاع الشمس خلال المنفذ . وقد استبانت درجات السلم العليا ، ومع هذا فما كان فى مقدورى الوصول إليها .. فلو أنى فعلت ذلك لأطاح بى التيار المنفلت من الفتحة ، أو هويت فيها وقضيت نحبى ، فلم أستطع إلا أن أستلق على العشب ، وأرتشف ثم أرتشف وأدير الطرف حولى من آن لآن . لقد كنت أعلم أنى فى مقاطعة وسكس Wessex فلقد كنت عمدت إلى الاستماع إلى محاضرة فى هذا الموضوع قبل أن أبدأ مغامرتى ، وتقع وسكس هذه فوق الحجرة التى نتحدث فيها الآن ، وكان لها فى التاريخ

شأن عظيم فإن ملوكها احتلوا الشاطىء الجنوبى من اندروز وولد Andredswald إلى كورنوول Cornwall بينما كان نهر وانز دايك Wansdyke الذى يشق مجراه فوق المرتفعات يحمى الشاطىء الشمالى . وكانت المحاضرة خاصة بازدهار وسكس ولست أدرى كم من الزمن بقيت قوة عالمية ولا كان علم ذلك ينفعنى ، وحقا لم يسعنى فى هذة الفترة إلا أن أضحك فهأنذا ملقى وإلى جانبى ذلك الحاجز الهوائى وجهاز التنفس يهتز فوق رأسى وكل منا نحن الثلاثة حبيس حفرة نما فيها العشب وجلل حافاتها السرخس . »

وهنا عاودته رزانته وقال :

« ومن حسن حظى أنها كانت حفرة لأن الهواء راح يتساقط فيها ثانية ويملؤها كما يملأ الماء القصعة فاستطعت أن أحبو حولها ، وفى الحال وقفت على قدمى . وكنت كلما حاولت أن أتسلق جوانب الحفرة تنفست مزيجا غلب فيه الهواء المؤذى . ولم تسؤ حالتى فقد كانت معى أقراص التغذية وظللت محتفظا بهذا المرح المضحك . . . أما الآلة فقد أنسيتها تماما وكان هدفى أن أصل إلى قمة الحفرة حيث ينمو نبات السرخس وأرى ما وراءها » .

« واندفعت أصعد فى المنحدر غير أن الهواء الجديد كان شديد الوطأة على . فارتددت وأنا أتقلب متدحرجا إلى أسفل بعد أن لمحت عينى شيئا

أدكن اللون . وكانت الشمس قد وهن ضوؤها فتذكرت أنها فى برج العقرب ، وقد كنت استمعت إلى محاضرة فى هذا الموضوع وفيها إن الشمس إذا كانت فى برج العقرب فعلى من يكون فى مقاطعة وسكس أن يسرع على قدر استطاعته وإلا احتواه ظلام حالك (وكان هذا أول نبأ مفيد جنيته من محاضرة وإخاله سيكون الأخير) وهذا ما دعانى إلى أن أتنفس ذلك الهواء الجديد فى حماسة ولهفة . . . وأنا أتقدم بما لدى من جرأة خارج هذا المستنقع من الهواء . . . وكانت الفجوة تمتلىء ببطء وقد دار بخلدى أحيانا أن النافورة قد خفت حدتها . وبدت آلة التنفس تتراقص قريبا من سطح الأرض وخريرها يتناقص . . . »

وتوقف عن الحديث . . . ثم واصل حديثه قائلا : « لست أظن أن ما ذكرته أثار فيك اهتماما . . وأما تتمة الحديث فنصيبه من ذلك أقل وأدنى فليس فيه أية أفكار . . ولكم وددت ألا أثقل عليك بالمجىء إلى فنحن يا أماه مختلفان . . . »

ولكنها طلبت منه أن يتابع حديثه فقال : « لقد أقبل المساء قبل أن أصعد إلى حافة الفجوة وكادت الشمس تتوارى فشقت على الرؤية ولم أحظ بأى منظر خلاب وأنت يامن عبرت لتوك سقف العالم لن تعبأى بسماع وصف لتلك التلال القليلة التى رأيتها . . تلال واطئة لا لون لها .. ولكنها فى نظرى تلال تنبض بالحياة ، وأما ذلك العشب الذى يكسوها فهو الإهاب الذى تتموج عضلاتها من تحته . . . وقد شعرت أن هذه التلال كانت تدعو الرجال فى الزمن القديم بغراء عنيف وكان الرجال يهيمون بها . أما الآن فإنها نائمة وقد يكون نومها أبدياً وهى تشارك البشرية فى أحلامها .

إن من يستطيع أن يوقظ تلال وسكس رجلا كان أو إمرأة لهو السعيد الموفق . . . فمع أنها الآن فى سبات إلا أنها لن تموت أبدا . . . »

ثم علا صوته فى انفعال وقال : ألست ترين ، وأنتم أيها المحاضرون ألاترون أننا نحن الذين نفنى وأن الشىء الوحيدالذى يحيا هناهوالآلة ؟ »

« لقد خلقنا هذه الآلة لتنفذ إرادتنا ولكننا لا نستطيع الآن أن نلزمها بذلك . لقد سلبت منا الإحساس بالمسافة والإحساس باللمس وشوهت العلاقات الانسانية وضيقت آفاق الحب وهبطت به إلى علاقة جسدية . . . . لقد شلت الآلة أجسامنا وشلت ارادتنا . . . . وها هى الآن تحتم علينا عبادتها . . . . إن الآلة تتطور ولكن فى غير طريقنا وإن الآلة لتتقدم ولكن لغير أهدافنا . . . . وما نحن إلا كرات الدم التى تجرى فى شرايينها . . . . ولئن استطاعت أن تستغنى عنا فلسوف تتركنا نهلك . . . . أواه ! لست أدرى علاجا لهذا الحال . . . . ! أو لعل عندى علاجا وحيداً وهو أن أخبر الناس أننى رأيت تلال وسكس كما رآها الملك الفريد عندما هزم الدانيماركيين .. »

«وهكذا غربت الشمس وقد نسيت أن أذكر لك أن نطاقا من الضباب كان يفصل بين التل الذى أنا فوقه وبين باقى التلال وكان هذا النطاق فى لون اللؤلؤ . . . . »

ثم توقف عن الحديث مرة ثانية ، فقالت أمه بعناء :

— « استمر فى حديثك »

ولكنه هز رأسه ،فقالت له :

— « استمر .. فما عاد يكربنى منك شيء .... لقد تحجر فؤادى »

فأجابها « لقد كنت انتويت أن أسرد لك البقية .. ولكنى لا أستطيع .. وإنى لأعلم أننى لا أستطيع ... وداعا ! »

وقفت فاشتى حائرة وكل عصب فيها ينبض بوخز أليم لما تفوه به من زندقة والحاد .. ولكن الفضول أيضاً كان يغلب عليها

فاشتكت قائلة « إن هذا ليس من العدل فى شيء فقد استدعيتنى عبر العالم لأستمع إلى قصتك وسأستمع إليها .. خبرنى بايجاز على قدر طاقتك فإنها مضيعة للوقت يؤسى لها . خبرنى ... كيف ارتددت إلى المدنية ؟ »

فقال بجفلا « إيه هذا هو ماتقصدين .. إنك تودين أن تسمعى عن المدنية .. أجل .. فهل وصلت فى حديثى إلى ذكر المكان الذى سقطت عنده آلة التنفس ؟ »

فأجابته قائلة « كلا ، ولكنى فهمت الآن كل شيء .. لقد وضعت آلة التنفس ونجحت فى السير على سطح الأرض إلى مركز من مراكز قذف الطائرات وهناك رفعوا إلى اللجنة المركزية تقريراً عنك »

— « أبداً »

ومر بيده على جبينه كما لو كان يطرد خاطراً مثيراً ، وعندما عاود سرد قصته أخـــذت منه الحماسة ثانية . « لقد سقطت آلة التنفس عند غروب الشمس .. ولقد ذكرت أن النافورة قد وهنت قوتها .. ألم أقل ذلك ؟ »

— « بلى »

— « لقد أدى هذا إلى سقوط آلة التنفس ، وكان ذلك عند المغيب وقد كنت — كما قلت لك — أنسيت كل شىء عن الآلة ، ولم أعبأ بالزمن إذ كنت مشغولا باشياء أخرى .. لقــــد كان لدى معين من هواء أعب منه كلما ثقلت على حدة الهواء الخارجى .. ولقد كان يمكن لهـذا المعين أن يبقى عدة أيام على ألاتهب ريح من تحته فتبدده . . وكان الوقت قد فات عندما تبينت ماذا دبر لإعاقه فرارى . . لقد رمم الصدع فى النفق إذ كان جهاز الاصلاح فى أثرى وقد ظهر لى تحذير آخر ولـكنى لم أعبأ به .. لقد كانت السماء فى الليل أشد صفاء عما كانت عليه فى النهار ، أما القمر الذى كاد يتوسط السماء وراء الشمس فقد غمر الفجوة بعض لحظات بضياء ساطع .. وقد كنت فى مكانى من الفجوة عند الحد الفاصل بين هوائنا الجوى والهواء الخارجى عندما رأيت شيئاً أدكن اللون يتحرك عند القاع ثم اختفى فى الفتحة . وقد هبطت فى نزق وانحنيت أنصت وإخالنى سمعت صوتاً ضئيلا لاحتكاك أشياء بعضها ببعض آتياً من الأعماق »

«حينئذ أحسست بالنذير ... ولـكن الوقت قد فات ، لقد انتويت أن أضع جهاز التنفس وأمضى خارج الفجوة ولـكن الجهاز كان قد اختفى . إنى لأعلم يقينا أين وقع . . بين العازل الهوائى والفتحة ، وإنى لأستطيع أن أتحسس الأثر الذى أحدثه فى العشب . لقد اختفى . . فتحققت أن يد آثمة تدبر أمراً ، وأنه يحسن بى أن أنجو بنفسى إلى الهواء الخارجى وإن كان قدر على الموت فلأمت وأنا أجرى صوب الغمام الذى فى لون اللؤلؤ . إنى لم أجفل قط . . ومن الفتحة ، إنه لجو شنيع !! لقد زحفت من

الفتحة دودة طويلة بيضاء خرجت تتسلل فوق العشب الذى غمره ضوء القمر . . فصرخت وفعلت كل ما ينبغى ألا أفعل . فوطئت هذه الدودة بدلا من أن أفلت منها . . فالتفت من فورها حول كعبى وبدأت المعركة ، واضطرتنى الدودة أن أعدو فى أنحاء الفجوة ، وبدأت تزحف على ساقى ثم صرخت طالباً النجدة (وهذا الجزء من القصة شنيع شديد الشناعة ، وهو الجزء الذى لن أبوح لك به) نعم صرخت أطلب النجدة .. لماذا لا نحتمل آلامنا فى صمت ؟ لقــــد صرخت أطلب النجده وكانت قدماى قد شدت إحداهما إلى الأخرى فسقطت ، وجذبنى جاذب بعيداً عن السرخس الحبيب إلى قلبى والتلال الحية عبر الحاجز المعدنى الكبير (ويمكننى أن أقص عليك هذا الجزء من القصة) وقد خيل إلى أننى لو تشبثت بالمقبض لنجوت ثانية فإذا به قد لف به هو الآخر .. فيالها من فجوة تحوى الكثير ! لقد كانت الديدان تفتش كل ناحية فيها و تكشف ماا ستتر منها ، وكانت غيرها تطل بأنوفها من الفتحة وهى على قدم الاستعداد . . وقد أخذت معها كل ما استطاعت إليه سبيلا من نباتات الأحراج وأضغاث السرخس وكل ماعثرت عليه، وهوينا إلى جهنم متشابكين . . وكان آخر مارأيته قبل أن يقفل الحاجز بعض النجوم ، وقد شعرت أن رجلا مثلى يعيش فى السماء . . أما عن القتال فقد قاتلت . وقاتلت إلى النهاية . . ولم يهدىء من ثورتى إلا اصطدام رأسى بالسلم ، وصحوت فى هذه الحجرة واختفت الديدان ، واكتنفنى هواء صناعى وضوء صناعى . . وهدوء صناعى . . وأخذ أصدقائى يستدعوننى عن طريق أنابيب التخاطب ليسألوا عما إذا كنت قد وقفت حديثاً على آراء جديدة

وهنا انتهى من سرد قصته .. وكان النقاش فيها ضرباً من المحال واستدارت فاشتى لتمضى ، وقالت بهدوء :

— « سينتهى بك الأمر إلى التشريد »

فابتدرها قائلا :

— « وددت لو أن الأمر كذلك»

— « لشد ما كانت الآلة رحيمة بك »

— « إنى لأفضل رحمة الله »

— «أتعنى بهذا الهراء أنك تستطيع أن تعيش فى الهواء الخارجى ؟ »

— « نعم »

— « ألم تر عند مراكز قذف الطائرات عظام أولئك الذين طردوا بعد الثورة الكبرى ؟

— « بلى »

— « لقد تركوا حيث لاقوا حتفهم حتى يكونوا لنا عبرة ومزدجرا وقد استطاع البعض منهم أن يبتعدوا عنها زاحفين .. ولكنهم لاقوا حتفهم أيضاً .. من يستطيع أن ينكر ذلك ؟ وهذا هو مصير المشردين فى أيامنا هذه . إن سطح الأرض لم يعد صالحا للحياة »

— « حقاً »

— « أن أنواع السرخس والحشائش القصيرة قد يمكن لها أن تحيا أما الأنواع الراقية فقد اندثرت . . هل كشفت عنها أية سفينة هوائية ؟»

— « لا »

— « وهل تحدث عنها أى محاضر ؟ »

— « لا »

— « اذن فلم هذا العناد ؟ »

فانفجر قائلا « ذلك لأنى رأيتها »

فقالت « رأيت ماذا ؟ »

— « لانى رأيتها فى ضوء الشفق .. لقد أتت لنجدتى عندما دعوت . . لأنها هى الأخرى قد وقعت فى شرك الديدان وكانت أسعد منى حظاً فقد نفذت واحدة منها فى حلقها وقضت عليها »

لقد جن . . . . . ورحلت فاشتى ولم تر وجهه مرة أخرى خلال المتاعب التى تلت

—✦—

الجزء الثالث

التشريد

لقد حدث تطوران هامان خلال السنوات التى أعقبت فرار كيونو ولقد كانا فى ظاهرهما حركتين ثوريتين ، ولكن فى كلتا الحالتين كانت عقول الناس قد هيئت لهما من قبل .. فما فعلوا سوى أن جاهروا بميولهم التى كانوا يكتمونها قبل ذلك .

وكانت أولى هاتين الظاهرتين أبطال استعمال آلات التنفس ؛ فلقد طالما اعتبر قادة الفكر من أمثال فاشتى أن زيارة سطح الأرض عمل أخرق .... وقد تكون السفن الهوائية لازمة ولكن ما نفع الخروج إلى سطح الأرض بدافع حب الاستطلاع وحده ؟ وما جدوى أن يدلف الواحد فى سيارة أرضية مسافة ميل أو ميلين ؟ لقد كانت عادة سوقية ، أو لعلها كانت غير لائقة ، ولم تكن مبعثاً لأية أفكار ولا لها أية صلة بالسجايا التى نعنى بها . . وهكذا أبطل استعمال آلات التنفس ، كما أبطل معها استعمال السيارات الأرضية ، وقد استقبل الجميع هذا التطور فى هدوء ورضى إلا قلة من المحاضرين شكوا من أنهم حيل بينهم وبين الوصول إلى مادة لموضوعاتهم ... ومع هذا فعلى

أولئك الذين ما زالوا يصرون على أن يعرفوا شيئاً عن الأرض أن ينصتوا إلى الحاكى أو ينظروا فى صور سينمائية مجسمة . . . وقد سلم بذلك حتى المحاضرون عندما وجدوا أن المحاضرة عن البحر لن ينقص تأثيرها إذا صيغت من عدة محاضرات سبق إذاعتها عن نفس هـذا الموضوع . وقد هتف واحد من الصفوة المختارة منهم : احذروا الأفكار الجديدة ! إن الآراء الجديدة ليس لها وجود حقيق ! إنهـا ليسـت إلا تأثرات جسدية نتيجة للحب أو الخوف . ومن ذا الذى يستطيع أن يشيد فلسفة على هذا الأساس الأخرق ؟ فلنعتمد من اراثنا ما كان من الأفكار الدارجة الشائعة التى كثر استعمالها وبذلك ننأى بها عن هذا العنصر الذى يشوش علينا أمورنا . . . ألا وهو الملاحظة المبـاشرة . . . أما أنا فلا تأخذوا عنى شيئاً عن هـذا الموضوع الخاص وهو « الثورة الفرنسـية » . . . خذوا بدلا من ذلك ما اعتقـــده عن أنيشارمن ، عن بوريزين ، عن جنش، عن هو ـ ينج ، عن تشى ـــ بو ـــ سنج ، عن لا فكاديو هيرن ، عن كارليل ، عن ميرابو ، عن الثورة الفرنسية . . . . فهذا الدم الذى أريق فى باريس وتلك النوافذ التى حطمت فى قصر فرساى ستتحول إلى فكرة تستطيعون أن تفيدوا منها فائدة كبرى فى حياتـكم اليومية وذلك عن طريق هذه العقول العشرة الكبيرة . . . . وحقـــاً ما أكثر هؤلاء الوسطاء واشد ما يتباينون . . فقد خلق لـكل حجة فى التاريخ من يعارضه فعلى بوريزين أن يعارض تشكك هو ـــ ينج وأنيشارمن ، وأنا نفسى أعارض نزق جنش واندفاعه . . . . وأما أنتم يامن تنصتون إلىّ فإنكم فى موقف يتيح لكم أن تحكموا على الثورة الفرنسية خيراً منى وأولئك الذين هم من سلالتكم سيكونون فى موقف أحسن من موقفكم

فسيعرفون رأيكم انتم فيما اعتقدته أنا ومع ذلك فقد أضيف وسيط آخر إلى السلسلة ... وعندما يحين الوقت ــ وهنا علا صوته ــ سيأتى جيل يسمو فوق الحقـــائق وفوق المؤثرات .. جيل لا لون له كلية

جيل تجرد تجرد الملائكة

من شوائب الشخصية

لايرى الثورة الفرنسية كما حدثت وقائعها .... أوكما كان يودها أن تقع بل كما كان يجب أن تقع إذا حدثت فى عصر الآلة .. »

وقد قوبلت هذه المحاضرة باستحسان عظيم هو صدى لإحساس كامن فى عقول الرجال من قبل .. إحساس بأن الحقائق الأرضية يجب أن تغفل .. وأن إلغاء آلات التنفس ربح أكيد .... ولقد كان هناك اقتراح بإبطال استعمال السفن الهوائية أيضا ولكن لم يعمل به ؛ وذلك لأن السفن الهوائية اندبجت بشكل ما مع أساليب الآلة ، ولكن قل استعمالها سنة بعد سنة كما قل ذكرها على ألسنة المفكرين .

وكان التطور العظيم الثانى هو إعادة تثبيت دعائم الدين، وكان التطور العظيم قد عبر عنه المحاضر أيضاً فى هذه المحاضرة الشهيرة . وما كان لأى منهم أن يخطىء فهم تلك النغمة الرزينة التى اختتم بها خطابه .... فلقد أثار صدى استجابة فى قلب كل شخص .

وأولئك الذين كانوا منذ أمد بعيـــد يعبدون فى صمت بدأوا الآن يتحدثون .... وأخذوا يصفون ذلك الإحساس العجيب من الطمأنينة

التى غمرتهم وهم يتناولون السجل واللذة فى تكرار أرقام معينة منه مهما قلت قيمة ما تحمله هذه الأرقام إلى الأذن الخارجية .. والنشوة عند لمس زر من الأزرار مهما كان عديم الفائدة أو دق كرسى كهربائى لا جدوى منه .... وكانوا يهتفون « إن الآلة تمدنا بالطعام والملبس والمسكن فبواسطتها نتحدث إلى بعضنا البعض ، ويرى أحدنا الآخر . . إن كياننا لا يقوم إلا على الآلة . إنها تتمشى مع الآراء والأفكار وتكره الأرقام والخرافات . . . إن الآلة قادرة على كل شىء خالدة .. مباركة هى الآلة! ولم يمض وقت طويل حتى طبع هذا النداء فى أول صفحة من صفحات السجل ، وفى الطبعات التالية أخذت هذه الفريضة تتضخم وتتحول إلى مذهب معقد من التسابيح والصلوات .

أما كلمة الدين فقد تحاشوا ذكرها فى إصرار وثبات . وكانت الآلة من الوجهة النظرية لا تزال تعتبر من خلق الإنسان وعدته فى الحياة . أما من الوجهة العملية فقد عبدها الجميع كإله إلا قلة من الرجعيين . . ولم تكن الآلة لتعبد بشكل جماعى فربما تأثر أحد المؤمنين تأثراً خاصاً باللوحات البصرية الزرقاء التى يرى خلالها غيره من المؤمنين . . . وربما تأثر بعضهم بأجهزة الإصلاح التى شبهها كيونو الأثيم بالديدان . . وربما تأثر آخر بالمصاعد وتأثر غيره بالسجل . وكل يرفع صلواته إلى هذا أو ذاك ويسأله أن يشفع له عند الآلة كوحدة جامعة لكل شىء . . أما عن الاضطهاد فقد كان له وجود أيضاً . . . . ولم يستشر لأسباب سنعرض لها فيما بعد ولكنه كان خفياً ؛ فمن لم يتقبل الحد الأدنى الذى يعرف « بالآلية التحررية » عاش فى خطر من عقوبة التشريد ومعناها الموت كما نعلم .

إننا إذا عزونا هذه التطورين العظيمين إلى اللجنة المركزية يكون إدراكنا للمدينة إدراكا قاصراً جداً . لقد أعلنت اللجنة المركزية هـذه التطورات ، وهـذا حق لا مرية فيه . ولـكن اللجنة لم تـكن هي السبب فيها ، ودورها ليس أكثر من دور ملوك العهد الإمبراطوري فى إشعال نار الحرب .. فلعمرى إنها خضعت لضغط لا يقاوم ، وهو ضغط لا يدرى أحد من أين جاء . . ولما قوبل بالرضى أعقبه ضغط من نوع جديد لا يقاوم كسابقه . فالأخلق بنا أن نطلق لفظ التقدم على مثل هـذه الحالة ، ولم يعترف أحد بأن الآلة ارتجلت هذا العمل . وهكذا قدمت إليها فروض الطاعة بكفاية تتزايد على الأيام وذكاء يتنـاقص عاما بعـد عام . وكلما أتقن الإنسان واجبـاته نحوها قلت معرفته بواجبات جاره ، ولم يستطع أحد فى العالم كله أن يفهم كنه هذه الهولة على أنها كل جامع لـكل شىء ؛ فلقد فنى أصحاب تلك العقول الجبـارة . وممـا لا مراء فيه أنهم خلفوا من بعدهم توجيهـات مستوفاة ، وجاء خلفاؤهم فحذق كل منهم جزءاً من هـذه التوجيهات ، ولـكن البشرية فى غمرة تطلعها إلى الراحة قد جاوزت الحد فاستثمرت خيرات الطبيعة استثماراً بعيد المدى وأخذت تنهار فى غفلة الهدوء والتطامن، وأصبح التقدم والارتقاء يقصد به تقدم الآلة وارتقاؤها .

أما فاشتى فقد مضت بها السنون قدما فى سلام حتى حلت الـكارثة الأخيرة .. كانت تظلم حجرتها وتنام ثم تصحو فتضيئها وتحاضر وتستمع إلى المحاضرات وتتبادل الأفـكار والآراء مع عدد عديد من أصدقائها .. وكانت تعتقد أن رقيها الروحى يتزايد على الأيام ، وكان يحدث من آن لآخر أن يمنح صديق من أصدقائها نعمة الموت بلا ألم فـكان يترك حجرته — رجلا كان أو امرأة — إلى عالم التشريد الذى تقصر عن إدراك كنهه

عقول البشر، ولم تكن فاشتى لتعبأ بذلك؛ فقد كان يحدث أحياناً أن تسأل انفسها هذا الموت بلا ألم إذا ما ألقت محاضرة فاشلة. ولكن ما كان يسمح لمعدل الوفيات أن يربو على معدل المواليد فرفضت الآلة إذ ذاك مطلبها.

ولقد راحت المتاعب تتابع قبل أن تحس بها فاشتى بوقت طويل، دهشت ذات يوم عندما تسلمت رسالة من ولدها؛ إذ لم يحدث بينهما اتصال قط فلم يكن بينهما ما يشتركان فيه وإنما سمعت عن طريق غير مباشر بأنه لايزال على قيد الحياة وبأنه نقل من نصف الكرة الشمالى حيث سلك هـذا السلوك المعيب إلى نصف الكرة الجنوبى، ووضع فى حجرة لاتبعد كثيراً عن حجرتها.

فتساءلت «أو يريد أن أزوره؟ كلا.. لن يكون هذا أبداً. إن وقتى لا يتسع لذلك!»

ولم يكن الأمر كما ظنت ولكنه كان جنونا من نوع آخر.. لقد رفض أن يظهر وجهه على القرص الأزرق وخاطبها بصوت رهيب وقد احتواه الظلام قائلا:

— «إن الآلة تقف»

— «ماذا تقول؟»

— «إن الآلة تقف وأنى لألمح أشراطها، وإنى بذلك عليم...» فانفجرت تضحك ضحكاً متصلا... وسمعها كيونو وغضب لذلك، وانقطع بينهما الحديث.

وهتفت فاشتى تحدث صديقاً لها : « أيمكنك أن تتصور شيئاً أشد سخفاً من ذلك؟ إن إنساناكان فيما مضى ولداً من أولادى يعتقد أن الآلة تقف ... إنه لكفر وإلحاد إن لم يكن جنونا وخبلا »

فأجابها الصديق : « الآلة تقف ؟ ماذ يعنى بذلك ؟ ليس لهذه العبارة معنى عندى . »

— « ولا عندى »

— « ما أظنه يشير إلى ذلك العطل الذى طرأ على الموسيقى منذ عهد قريب »

— « يقينا لست أظن ذلك . . دعنا نتحدث عن الموسيقى »

— « هل رفعت شكواك إلى أولى الأمر ؟ »

— « نعم وقد ردوا على بأنها فى حاجة إلى إصلاح . وأحالونى إلى لجنة أجهزة الإصلاح . ولقد شكوت من هذه الزفرات والشهقات العجيبة التى تشوه جمال سمفونيات « المدرسة البرسبينية » . وإنها لتقرع الآذان كأنها صوت رجل برحت به الآلام ، وقد وعدت اللجنة باصلاحها فى القريب العاجل »

واصلت فاشتى حياتها وقد انتابها قلق غامض . . . . وكان ما أكربها هو ذلك الخلل الذى طرأ على الموسيقى . كما انها لم تقو على أن تنسى حديث كيونو ؛ فلو أنه علم أن بالموسيقى خللا — ولن يستطيع أن يعرف ذلك لأنه يمقتها — لو عرف أن عطلا طرأ عليها لكان تعليقه المسموم قطعاً على ذلك هو توقف الآلة . لقد قالها جزافا ، ولكن ياله

من توافق أزعجها . وقد تحدثت فاشتى إلى لجنة أجهزة الإصلاح فى انفعال وصبر نافد ، فكان ردهم عليها كسابقه بأن الخلل سيصلح بعد فترة وجيزة .

فأجابت مغضبة : « بعد فترة وجيزة ! ! بل يصلح توا ، وما الذى يدعونى إلى أن أتحمل عنت هذه الموسيقى الشوهاء . . لقد ألفنا تصليح الأشياء من فورها . فإن أنتم لم تصلحوها فوراً قدمت شكواى إلى اللجنة المركزية » .

فأجابتها لجنة أجهزة الإصلاح قائله : « إن اللجنة المركزية لاتتسلم الشكاوى الشخصية »

— « فعن طريق من إذن أقدم شكواى ؟ »

— « عن طريقنا »

— « اذن فهأنذا أشكو . »

— « ستقدم شكواك حينما يحين دورها »

— « وهل اشتكى أحد غيرى . . . ؟ »

ولم يكن هذا السؤال ليتفق وتقاليد الآلة وقد رفضت لجنة أجهزة الإصلاح أن ترد عليه ·

فهتفت بانفعال تخاطب صديقاً آخر من أصدقائها : « ما أسوأ هذا ! أنى لأسوأ النساء حظاً ؛ فلم يعد فى وسعى الوثوق مطلقاً بهذه الموسيقى ، وما من مرة طلبتها إلا وجدتها تزداد سوءاً على سوء » فأجابها هذا الصديق:

«إن لى أيضاً متاعبى ، فأحياناً تعترض مجرى أفكارى ضوضاء خفيفة تزعجنى» .

— «وما ظنك بها ؟»

— «لست أدرى أهى فى داخل رأسى أم فى باطن الجدار»

— «عليك أن تتقدم بشكواك فى كلتا الحالتين»

— «لقد شكوت وستقدم شكواى فى دورها إلى اللجنة المركزية»

ومر الوقت وماعادوا يتبرمون بما فى الآلة من عيوب وهى عيوب لم تصلح . . غير أنه قد بلغ من استجابة الأنسجة البشرية وانسجامها فى تأدية عملها فى الفترة الأخيرة إلى أنها أصبحت تتكيف فى الحال مع تقلبات الآلة ونزواتها ، وما عاد يضايق فاشتى ذلك التنهد الذى يصاحب سمفونية برسبين وهى فى ذروتها .

لقد قبلته على أنه جزء من النغم وماعادت هذه الضوضاء المزعجة تضايق صديقها سواء أكانت فى داخل رأسه أم فى باطن الجدار ، وهكذا كان الحال فى الفاكهة الصناعية المصبوبة فى قوالبها . وفى ماء الاستحمام الذى بدأ يكون آسناً وفى القوافى السقيمة التى أخذت آلهة القريض فى إخراجها ، لقد كانت الشكوى من كل ذلك مريرة فى بادىء الأمر ثم أعقب ذلك الرضى والنسيان ، وسارت الأمور من سيىء إلى أسوأ بغير أن تلقى مناوأة

وقد كان القصور فى أجهزة النوم على طريقة أخرى فقد أصابها توقف أشد خطراً : إذا جاء مع الأسرة يوم لم تلب النداء لمن طلبها من أصحابها المتعبين فى جميع أنحاء العالم . . فى سومطرا وفى سكس وفى المدن العديدة

فى كورلند والبرازيل . وقد يبدو الأمر مضحكا ولكنا نستطيع أن نؤرخ انهيار البشرية من ذلك اليوم . وهوجمت اللجنة المسئولة عن هذا القصور بالشكاوى فأحالتها كما جرت العادة إلى لجنة أجهزة الإصلاح التى أكدت بدورها لأصحاب الشكاوى بانها ستعرض على اللجنة المركزية ولكن السخط أخذ يتزايد فإن الإنسانية لم تكن بعد قد أعدت نفسها إعداداً كافياً لتصبح فى غنى عن النوم . . . فبدءوا يقولون « إن أحدهم يتدخل فى شئون الآلة . إنه يحاول أن يجعل من نفسه ملكا وذلك لكى يرجع النوازع الشخصية إلى البشرية مرة أخرى » .

— « أنزلوا بالرجل عقوبة التشريد »

— « النجدة ! انتقموا للآلة ! انتقموا للآلة »

— « إلى القتال! وأهلكوا هذا الرجل ! »

ولكن لجنة إصلاح الأجهزة تقدمت إذذاك ولطفت من حدة ذلك الذعر بكلمات أجيد اختيارها واعترفت بأن أجهزة الإصلاح نفسها فى حاجة إلى إصلاح . .

وقد كان أثر هذا الاعتراف الصريح مذهلا .

فإن محاضراً ذائع الصيت وهو صاحب البحوث عن الثورة الفرنسية ذلك الذى كان يغشى كل انحلال جديد بالعظمة والجلال قال « إننا طبعاً لن نتعجل بشكاوانا الآن ، إن أجهزة الإصلاح كانت تعاملنا خير معاملة فى الماضى حتى إننا جميعاً نبادلها العطف وسننتظرها صابرين حتى تبرأ ، وستستأنف تأدية واجباتها حينما يحين الوقت الملائم لها . وعلينا فى غضون

تلك الفترة أن نستغنى عن أسرتنا وعن أقراص التغذية وعن احتياجاتنا البسيطة الأخرى وإنى لأحس إحساساً أكيداً بأن هذه هى رغبة الآلة .

وقد هتف له المستمعون هتاف الاستحسان على بعد آلاف الأميال ؛ فما زالت الآلة تربط بينهم . فقد كانت الأسلاك تمتد تحت البحار وتحت مراسى الجبال . وعن طريقها كانوا يبصرون ويسمعون تلك الأعين والآلات الضخمة التى كانت تراثهم .. وطنين آلات عديدة لفت أفكارهم فى ثوب من الخضوع . ولم يبق على عقوقه إلا العجائز والمرضى ؛ فقد انتشرت الشائعات تقول إن جهاز الموت بلا ألم قد تعطل وإن الألم قد عاود الظهور بين الناس .

وأصبح من العسير على الإنسان أن يقرأ ، فقد ظهرت آفة فى الجو أعتمت تألقه ومرت على فاشتى أوقات لم تكد تستطيع الرؤية فيها عبر حجرتها . وكذلك أصبح الهواء كريه الرائحة ، وعلت الشكاوى وقصر الإصلاح وأخذ المحاضر يهتف وفى صوته نبرات الاستبسال « تمسكوا بأهداب الشجاعة ! ! فماذا يهمنا مادامت الآلة تعمل ؟ فأمامها تتساوى الظلمة والضياء ، ومع أن الأمور قد تحسنت فيما بعد فلم يمكنهم الفوز بذلك التألق القديم ، ولم تستطع الإنسانية أن تخلص من هذا الغسق الذى اكتنفها . وقد كان هناك حديث هستيرى عن الإجراءات الخاصة بالدكتاتورية المؤقتة ، وطلب من سكان سومطرا أن يلموا بآلات محطة القوى المركزية المقامة فى فرنسا ، ولكن الذعر قد ساد وبذل الرجال معظم جهودهم فى الضراعة إلى سجلاتهم ، وهى الدليل المحسوس على أن الآلة ذات قدرة شاملة . وكانت درجات الذعر تتفاوت فى النفوس ، وكانت

شائعات تنتشر فى بعض الأوقات تبعث على الأمل بأن أجهزة الإصلاح كادت تصلح . . وبأن أعداء الآلة قد تم إخضاعهم وأن مراكز أعصاب جديدة بدأت تزهو وستقوم بعملها بصورة أكمل وأبهى من قبل . ولكن جاء يوم تعطل فيه جهاز الاتصال كله فى جميع أنحاء العالم بغير أقل إنذار وبدون أى بادرة من بوادر الضعف . وانتهى العالم كما كانوا يفهمونه .

وكانت فاشتى فى ذلك الوقت تلقى محاضرة قوبلت فى مطلعها بالاستحسان ولما واصلت حديثها صمت المستمعون . . ولما انتهت لم يكن هناك صوت يسمع . فاستاءت فاشتى من ذلك قليلا واستدعت صديقاً لها مختصاً بأنواع المؤاساة . فلم تسمع صوتاً : لاشك أنه نائم ، وقد تكرر ذلك أيضاً مع صديق آخر حاولت أن تستدعيه ، وكذلك حدث مع غيره . . حتى تذكرت قولة كيونو الغامضة « الآلة تقف »

ولكن مازالت هذه العبارة لاتحمل أى معنى . . فاذا كان الأزل قد توقف فإنه سيعود سيرته لامحالة .

فلا يزال — على سبيل المثال — قليل من الضوء والهواء ، وكان الهواء قد تحسن قبل ذلك ببضع ساعات . . وكان السجل لايزال باقياً ، وسيكون هناك أمن وطمأنينة مادام السجل باقياً .

ولكن فاشتى انهارت .

فقد ساد مع توقف النشاط رعب غير متوقع — الصمت !!

ولم تكن قد عرفت الصمت قط فكاد إطباقه يقضى عليها ، وقدقتل لتوه آلافا من الناس . لقد كان ذلك الطنين الثابت يكتنفها منذ مولدها إذ كان للآذان بمثابة الهواء للرئتين، فنفذت إلى رأسها آلام مبرحة واندفعت تتعثر وهى لا تكاد تدرى ما تفعل، وضغطت على ذلك الزر الذى لم تألف استعماله وهو الخاص بفتح باب حجرتها ، فأخذ الباب حينئذ يدور على مفصل بسيط خاص به لم يكن متصلا بمحطة القوى المركزية التى تلفت بعيداً فى فرنسا . . وفتح الباب فأثار فى فاشتى آمالا كبارا لأنها اعتقدت أن الآلة قد أصلحت ... لقد فتح الباب فرأت النفق المظلم مبعداً فى مساره إلى الحرية . . وألقت عليه نظرة واحدة ثم نكصت على عقبيها ، فلقد كان النفق مكتظاً بالناس ... لقد كادت تكون آخر من تلق النذير فى هذه المدينة !

لقد كان الناس لديها فى أى وقت مبعث اشمئزاز ونفور .

وكانت رؤيتهم هى الكابوس الذى تراه فى أسوأ أحلامها ... لقد كانوا يزحفون هنا وهناك ... ويصرخون ويتصايحون ويلهثون ... ويتحسسون بعضهم بعضاً ، ثم يختفون فى الظلام وأحياناً يدفعون من فوق الرصيف إلى القضيب المكهرب. وكان البعض يتقاتلون حول الأجراس الكهربائية يحاولون استدعاء القطارات التى ما كان يمكن أن تلبى لهم نداء ، والبعض الآخـــر يصيحون طالبين أجهزة الموت بلا ألم أو أجهزة التنفس ، أو كانوا يلعنون الآلة ويكفرون بها . ووقف بعضهم على أبواب حجراتهم مرتاعين كفاشتى نفسها مترددين بين البقاء والرحيل . ومن وراء كل هذا الضجيج كان السكون . ، ذلك السكون الذى هو صوت الأرض وصوت الأجيال التى مضت .

كلا .. لقد كان ما تراه أسوأ من العزلة فأغلقت باب حجرتها ثانية وجلست تنتظر النهاية. وقد استمر هذا التفكك والانحلال مصحوبا بفرقعة ودمدمة مريعة، ولابد أن الصمامات التى كانت تتحكم فى الأجهزة الطبية قد أصابها الضعف فتمزقت وانفجرت وتدلت من السقف بصورة نكراء. ومادت أرض الحجرة وقذفت بفاشتى من مقعدها وقد نضحت فى اتجاهها إحدى الأنابيب ذات الشكل الأفعوانى . . . وأخيراً اقترب الفزع الأكبر وبدأ الضوء يهن . . . وعرفت أن يوم المدنية الطويل قد أفلت شمسه .

وأخذت تدور مبتهلة أن تنجو من هذا البلاء بأية وسيلة وقبلت السجل وضغطت زراً بعد آخر . ولكن الضجيج خارج حجرتها بدأ يتزايد حتى نفد إليها خلال الجدران . . . وأخذ الضياء يعتم فى حجرتها وقد اضمحلت قوة الاستجابة فى محولاتها المعدنية .. ولم تعد ترى القائم المعد للقراءة ولا السجل ولو أنها كانت تمسكه بيدها .

وهكذا ذهب الضوء هاربا فى أثر الصوت ، واقتفى الهواء أثر الضوء ... وقد ارتد السكون الأصيل إلى الكهف الذى حرم منه منذ أمد طويل . . . وواصلت فاشتى دورانها كأنها عابد من عباد الديانات القديمة ، وكانت تصرخ وتصلى وتضغط الأزرار بيديها الداميتين .

وهنا فتحت باب سجنها وهربت ... هربت بالروح أو هكذا بدا لى قبل أن أختتم تأملاتى .. أما هروبها بالجسد فهذا ما لا أستطيع إدراكه . فقد دفعت مصادفة ذلك المحول الذى يفتح الباب وقد نبهها

اندفاع الهواء المنتن على جسدها والهمسات المختلجة فى آذانها إلى أنها تواجه النفق مرة ثانية . . وتواجه ذلك الرصيف الهائل الذى رأت عنده الرجال يتقاتلون . أما الآن فما كانوا يتقاتلون ، ولم يبق إلا الهمسات وأنين الصيحات الخافتة . لقد كانوا يموتون فى الظلام بالمئات ...

فانفجرت باكية ..

واستجابت لها الدموع ...

لقد بكى كل منهما من أجل البشرية لا من أجل نفسه ؛ فلم يحتملا أن تكون هذه هى النهاية .. لقد تفتح قلباهما قبل أن يطبق السكون، وعرفا حقيقة الشيء الذى كان ذا قيمة فى الوجود ألا وهو الإنسان ... زهرة الخليقة وأنبل ما تراه العين فيها « الرجل الذى جعل الآلهة فى وقت ما على صورته » والذى عكس قوته على الأفلاك . . ذلك الرجل الجميل العارى كان يموت مختنقاً فى أرديته التى نسجها بيديه ... لقد كد جيلا بعد جيل وها هو ذا يلقى جزاءه ... حقاً لقد بدأ الرداء فى بادىء الأمر علوياً موشى بألوان الثقافة ومحاكا بخيوط نكران الذات . . ولقد بقى علوياً طالما كان رداء فقط وطالما كان فى مقدوره أن يلقيه عنه متى شاء ويعيش بالجوهر أى بالروح . . وبالجوهر الآخر المساوى للروح فى قداسته وهو الجسد ، ومن أجل هذه القرون من الإجحاف فى حق العضلات والأعصاب وفى حق هذه المنافذ الخمسة التى نستطيع أن ندرك بها دون غيرها .. نداهنها بالتحدث عن النشوء والارتقاء حتى أصبح الجسم عجينة لدنه بيضاء وموطن أفكار لا لون لها .

انتفاضات نفس كانت قد عطت إلى الافلاك فنالتها ...

قالت وهى تنتحب « أين أنت ؟ »

فأجاب صوته فى الظلام « هنا »

ـــ « أثمة أمل يا كيونو ؟ »

ـــ « لا أمل لنا »

ـــ « أين أنت ؟ »

ثم أخذت تحبو نحوه فوق أجســـاد الموتى وانبجس منه الدم على يديها .

فقال لاهثا « أسرعى فإنى أموت . . ولـكننا . . تتلامس ونتحدث عن غير طريق الآلة . . . »

وقبلها واستطرد يقول :

« لقد عدنا إلى حقيقة أنفسنا . إننا نموت ولـكننا استعدنا الحياة كما كانت فى وسكس عندما قذف الملك الفرد بالدانيماركيين . إننا نعلم مايعلمه الذين يعيشون خارج عالمنا . . أولئك الذين سكنوا فى الغمام الذى هو بلون اللؤلؤ . . »

ـــ « ولـكن يا كيونو . . أحقا ذلك الأمر ؟ أيوجد بشر على سطح الأرض ؟ أيـكون هذا . . . هذا النفق . . . هذا الظلام المسموم . . ليس هو بالنهاية المحتومة ؟ »

فأجابهـا :

— « لقد رأيتهم وتحدثت إليهم وأحببتهم . . إنهم يختبئون فى الضباب وبين أوراق السرخس حتى تنتهى مدنيتنا . أما اليوم فهم مشردون وغداً .... »

— « أواه !! غداً . . غداً يقوم غر أحمق بإدارة الآلة ثانية »

فقال كيونو :

— « أبداً . . . أبداً إن البشرية قد تلقت درسها ! »

وبينما هو يتكلم انهارت المدنية وأصبحت هشيما تذروه الرياح . . . وهبطت سفينة من سفن الهواء بمركز لقذف الطائرات واصطدمت بمرفأ مهدم وأخذت تتفجر مندفعة فى طريقها إلى أسفل تشق دهليزاً بعد دهليز بأجنحتها الفولاذية .

ووقعت أعينهما هنيهة على أكداس الموتى ، وقبل أن يلحقا بهم شاهداً رقعاً صغيرة من السماء رائقة لم تشبها شائبة .

يوم في حياة منجِّم

بقــــلم

ر . ك نارايان

لقد كان مواظبا على أن يفتح حقيبته ظهر كل يوم وينشر أمامه أدوات المهنة ، وهى اثنتا عشرة محارة من محار الكورى [1] وقطعة مربعة من القماش عليها خرائط خفية غامضة ومذكرة وحزمة أوراق مكتوبة باللغة التدمرية [2] وكانت جبهته تتألق بزنجفر [3] ورماد مقدس وعيناه تبرقان بريقا حادا غير مألوف . . لم يكن فى حقيقته سوى نظرات استطلاع مستديم بحثا عن العملاء ، ولكن عملاءه حسبوها نظرة تنبؤ ، واطمأنت نفوسهم إليه . . . وقد عظمت قوة عينيه إلى حد كبير بالوضع الذى كانتا عليه بين جبهة عليها طلاء وعذارين قاتمين مسترسلين فوق خديه ، إن عينى رجل ضعيف العقل لتتألقان فى مثل هذا الوضع ، كما وضع على رأسه عمامة بلون الزعفران ، وهذا الحذق فى توزيع الألوان . . لم يخذله أبدا .

فقد اجتذب الناس كما ينجذب النحل الى الزهر ، أو نبات الداليا . . وقد كان يجلس تحت الفروع الممتدة لشجرة التمر هندى التى كانت تجانب ممرا يخترق متنزه قاعة البلدية . . . وقد كانت بقعة ملفتة للانظار بوسائل عدة ، فقد كان هناك جمع متزايد يروح ويجىء فى هذا الدرب الضيق من الصباح الى المساء ، كما كانت تعرض على طول هذا الطريق

---

(١) نوع من الصدف (٢) نسبة الى تدمر
(٣) أكسيد الزئبق الاحمر .

أنواع من الحرف والمهن ؛ فمن باعة العقاقير إلى باعة المصنوعات الحديدية المسروقة والحبال الرثة ، إلى أهل السحر ، وأرباب الشعوذة، ونجد الى جانب هذا دلال الأقمشة الرخيصة . . . يثير من الضجيج ما يوقظ المدينة بأسرها ، ويليه فى فن الضجيج بائع الفول السودانى المحمص ، ذلك الذى يخلع على سلعته اسماً خياليا كل يوم فتارة يدعوها مثلجات بمباى ، وتاره يسميها لوز دهلى ، وفى المرة الثالثة ينادى عليها بمأكول الراجا إلى غير ذلك من المسميات ، والناس تتجمع حوله . . . وكان جانب كبير من هذا الحشد يتسكع أمام المنجم الذى كان يمارس حرفته مستعينا بضوء شعلة تطقطق وتدخن فوق ركام الفول السودانى على مقربة منه ، وكان جل السحر والفتنة فى هذا المكان يعزى الى إهمال المجلس البلدى إضاءته . . . فما كان يضيئه سوى أضواء الحوانيت . . . وكان دكان منها أواثنان قد أضيئا بأنوار غاز له صفير وأزيز ، والبعض بشعلات مكشوفة نصبت لها أعواد قائمة ، والبعض الآخر بمصابيح دائرية قديمة الطراز . . وكان واحد أواثنان من أصحاب الحوانيت قد دبرا أمرهما بغير أضواء كما فعل صاحبنا المنجم ؛ فأصبح المكان بذلك عبارة عن أشعة ضوئية متصالبة مذهلة ، وأشباح متحركة . . وقد لاءم هذا الوضع المنجم ملاءمة تامة لسبب بسيط هو أنه لم يقصد بتاتاً أن يكون منجماً حينما بدأ حياته ، وما كان يدرى ما سيحدث للآخرين فى اللحظة التالية أكثر مما يدرى لنفسه . كان دخيلا على التنجيم شأنه فى ذلك شأن عملائه السذج ، ومع ذلك فقد كان يقول أحياناً ما يرضيهم ويدهشهم ؛ فلقد كانت المسألة مسألة تمرس ومران وزكانة تنطوى على ذكاء وفطنة ، ومع كل ذلك فقد كان يكدح كما يكدح الرجل الشريف ،

وكان يستحق ما يناله من أجر يحمله إلى بيته آخر اليوم ...

كان قد رحل عن قريته بدون خطة مرسومة أو رأى سابق ، ولو أنه بقى هناك لاحترف مهنة آبائه وأجداده وهى فلاحة الأرض ، ثم يعيش ويتزوج وينضج فى بيت آبائه وبين حقول الحنطة التى يملكها . . . . ولكن لم يسطر له ذلك فى صفحة القدر ؛ فقد اضطر إلى ترك بيته دون أن يخبر أحداً بذلك ، ولم يهدأ ويطمئن حتى أصبح منه على مبعدة مائتين من الأميال ، وهى فى نظر القروى قدر عظيم ، وكأن محيطا شاسعاً يفصل بينهما . وكان يشتغل فى تحليل متاعب البشر ، ومشاكل الزواج والمال وتشابك العلاقات الإنسانية ، وقد شحذ المران الطويل من قوة إدراكه ؛ فقد كان يعرف موطن الداء فى زمن وجيز ، وكان يتقاضى ثلاث فطائر عن كل سؤال يجيب عنه ، ولم يكن يفتح فاه إلا بعد أن يستمر محدثه فى الكلام زهاء عشر دقائق . . . . فيتزود من ذلك بمادة كافية تمكنه من أن يقدم قدراً من النصائح والردود : فإذا تنبأ لمن يجلس أمامه وهو يتفرس فى راحة يده بأنه لاينال خير الثمرات من مجهوداته فى أشياء كثيرة ، فإن تسعة من كل عشرة من المستمعين إليه يميلون إلى التسليم بما يقول ، أو يسأل محدثه :

« أليست هناك امرأة فى أسرتك ولو من ذوات قرباك الأبعدين لاتميل إليك؟» أو ربما يعنى ببحث تحليل لأخلاق الناس فيقول لمن يحدثه : « إن جل متاعبك إنما يعزى إلى طبيعة مزاجك ، وكيف لك أن تكون غير ذلك طالما زحل[1] فى برجه ؟ إن لك طبيعة محتدمة ومظهراً خشناً » .

---

(١) يعنى أنه واقع تحت تأثير هذا البرج .

ومثل هذه العبارات تقربه إلى قلوبهم ؛ فإن أكثر الناس يود أن يكون له مظهر الآمر الناهى .

وفى تلك الليلة أطفأ بائع الفول السودانى ناره ونهض ليعود إلى بيته وكان هذا إيذاناً للمنجم بأن يجمع حاجياته .... لأن الظلمة احتوته ، ولم يبق إلا شعاع من الضوء الأخضر ضل طريقه إليه من مكان ما ووقع تجاهه على الأرض ، فجمع محاره الكورى وزخارفه وبينما هو يعبئها فى حقيبته إذ اختفى من أمامه ذلك الشعاع الأخضر ، فرفع رأسه ورأى رجلا منتصباً أمامه ، فاستروح منه رائحة العميل وقال له : « إنك لتبدو مهموما ، ولقد يفيد أن تجلس معى هنيهة نتحدث » .

فهمهم الرجل بعبارة مبهمة ثم لج المنجم فى دعوته . وعند ذلك دس الرجل راحته تحت أنف المنجم وقال : « أتدعى أنت أنك منجم ؟ »

فشعر المنجم بأن الرجل يتحداه وأمال راحة الرجل صوب الشعاع الأخضر وقال له « إن طبيعتك هى موطن الداء . » فأجاب الرجل : « دعك من هذا ، وحدثنى بشىء فيه غناء » فشعر صاحبنا بأن كبرياءه قد امتهنت وقال :

« إنى لأتقاضى ثلاث فطائر عن كل سؤال وإن ماتحصل منى ليعدل ماتدفع من نقود » .

وعند ذلك سحب الرجل ذراعه وأخرج آنة (١) وقذف بها إليه قائلا:

---

(١) نوع من العملة الهندية

« إنى أود أن أسأل بعض الأسئلة فإذا ثبت لى أنك تخدعنى وجب عليك أن ترد لى هذه الآنة مضافا إليها الفائدة »

— وإن ارتضيت إجاباتى . . أتعطينى خمس روبيات ؟ »

— « كلا »

— « أو تعطينى ثمانى آنات ؟

— « حسنا على أن ترد لى ضعف هـذا المبلغ إذا كنت مخطئـاً فيما بعد » .

وبعد قليل من الجدل تم الاتفاق ، وتوجه المنجم بصلواته إلى السماء وأشعل الآخر لفافته . وعلى ضوء عود الثقاب لمح المنجم وجه الغريب وتلت ذلك فترة توقف ، وكان ضجيج السيارات وصوت سـائقى الجوتكا وهم يغلظون القول لجيادهم وثرثرة الجموع تؤجج من غسق الليل المخيم على المتنزه ، وكان الرجل الآخر جالساً يجذب الأنفاس من لفافته وينفثها فى الهواء . . جامد العاطفة قاسى الفؤاد ، فشعر المنجم باستياء شديد وقال : « خذ نقودك فإنى لم أعتد مثل هذا التحدى ، ولقد تأخرت اليوم عن موعدى » وهم أن يجمع حاجاته ، فأمسكه الرجـل من معصمه وقال : إنك لاتستطيع أن تفلت الآن .. إنك أنت الذى جذبتنى إليك وأنا أعبر الطريق ! فارتجف المنجم وهو فى قبضة الغريب واهتز

صوته ، وخفتت نبراته ، وقال : « دعني اليوم وسأتحدث إليك غداً » ولكن الرجل دفع راحته فى وجهه وقال « لقد قبلت التحدى فاستمر فى حديثك » فعاود المنجم حديثه — وقد جف حلقه — وقال « إن فى الأمر امرأة » فقال له « كف عن ذلك ، فما أريدهذا كله ... أنزانى أفلح فى استقصائى الذى أقوم به الآن ؟ أجب عن هذا واذهب بعد ذلك حيث شئت . وإلا فلن أدعك تذهب حتى تلفظ كل ما معك من نقود »

فتمتم المنجم ببعض تعويذات وقال « سأتكلم على أن تعطينى روبية إذا وجدت كلامى مقنعاً ، وإلافلن أنبس بحرف واحد وأنت وشأنك فاصنع مايروقك »

وبعد قدر من المشارطة والمساومة وصلا إلى اتفاق فقال المنجم :

— « لقدتركك غريمك ظناً منه أنك لاقيت منيتك...أمحق أنا فى ذلك؟ »

— « آه ! .. حدثنى بمزيد أوفر »

— « لقد طعنت بسكين فى يوم من الأيام »

— « يالك من رجل طيب »

وكشف عن صدره ليريه أثر الجرح بعد التئامه ، ثم قال «وماذا أيضاً » فقال المنجم :

— ثم ألقيت فى الحقل فى بئر قريب وتركت فى مكانك على اعتبار أنك ميت »

فصاح الرجل وقد أخذت منه الحماسة كل مأخذ « لقد كدت أكون مع الهالكين لولا أن تصادف وتطلع عابر سبيل فى هذه البئر » ثم جمع قبضته وقال : « ومتى يقع فى يدى؟ » فأجابه المنجم : « فى الدار الآخرة ؛ فقد وافته منيته منذ أربعة أشهر فى بلد بعيد وإنك لن تراه بعد الآن . » فتأوه الغريب لدى سماعه هـذا النبأ ، ومضى المنجم قائلا : « جيورو ناياك . . . » فأجابه الرجل وقد ملكته الدهشة « أتعرف اسمى . . . !!؟ »

— « كما أعرف كل شىء آخر . . . أصغ إلىّ واستمع لما أقول يا جيوروناياك إن قريتك تقع إلى الشمال من هذه المدينة على مرحلة يومين ، خذ القطار التالى وانطلق إليها ، إنى لأرى خطراً يتهدد حياتك مرة أخرى إذا بعدت عن موطنك . »

ثم أخرج حفنة من الرماد المقدس وقدمها إليه قائلا : « أدلك بها جبينك واذهب إلى بلدك وإياك والسفر صوب الجنوب مرة أخرى وسيطول عمرك إلى مائة عام . .

فأجابه الرجل وهو يفكر : « ولم أرحل مرة أخرى ؟ لقد كنت أفعل ذلك بين الفينة والفينة لأبحث عنه حتى إذا ما عثرت عليه

حرمته نسمة الحياة ، ثم هز رأسه آسفاً وقال : « لقد أفلت من يدى ، وأنى لآمل أن يكون قد مات الميتة التى يستحقها »

فأجابه المنجم : « أجل . . . لقد سحقت عظامه سيارة من سيارات النقل » فبدت على الرجل علائم الرضا .

وعندما جمع المنجم حاجاته ووضعها فى حقيبته خلا المكان من أهله . حتى ذلك الشعاع الأخضر ، فقد مضى وخلف المكان فى ظلمة وسكون ، وانطلق الغريب فى ظلمة الليل بعد أن وهب المنجم حفنة من النقود ، وكان الليل قد انتصف عندما عاد المنجم إلى بيته وكانت زوجته تترقب عودته عد باب الدار ، وقد طلبت إليه أن يوضح لها أسباب تأخره ، فألقى النقود إليها وقال : « عديها فقد منحنى إياها رجل واحد »

فأجابته وهى تعدها وقد بدت عليها الفرحة « اثنتا عشرة آنة ونصف آنة . سأشترى غداً بعضاً من السكر الأحمر وجوز الهند ، فقد كانت طفلتنا تلح فى طلب الحلوى منذ أيام وسأهيء لها مأكولا شهياً » .

ثم قال المنجم : « لقد خدعنى ذلك الخنزير فقد وعد بأن يعطينى روبية » .

فتطلعت إليه امرأته وقالت : أراك مبلبل الخاطر . فماذا يضيرك ؟ »

وبعد العشاء قال المنجم لزوجته وهو جالس على فراشه « لقد

انزاح اليوم عن كاهلي عبء ثقيل . . . لقد كنت أعتقد طوال هذه السنين أني أحمل وزر رجل اغتلته ، لذلك هربت من بلدى ، واستقر بى المقام هنا ، واقترنت بك ، ولكنى علمت اليوم أنه حى يرزق ، فلهثت المرأة وقالت « أنت حاولت أن تغتال رجلا ؟ »

— « نعم كان ذلك فى قريتنا إذ كنت حدثا غريراً ؛ فقد حدث ذات يوم أننا جلسنا نشرب الخمر ونلعب الميسر ، ثم تشاجرنا شجاراً عنيفاً ولكن لماذا أعيد هذه الذكرى ، وقد دنا موعد الرقاد ؟ »

قال ذلك متثائباً . . . ثم استلقى على فراشه . . .

الرحلة

بقلم

كاترين مانسفيلد

كان منتصف الساعة الثانية عشرة موعد ارتحال السفينة بكتن ، وكانت ليلة ساجية اعتدل هواؤها وتألقت نجومها وعندما خرجوا من العربة واتجهوا إلى المرفأ القديم الممتد داخل الميناء هبت نسمة لينة من البحر داعبت قبعـــة فنيلا ، فرفعت يدها تمسك بها لتبقيها على رأسها . وكان الظلام مخيماً على المرفأ القديم ، وحظائر الصوف وعربات نقل الحيوانات والآلة الرافعة منتصبة إلى أعلى والقاطرة الصغيرة المللمة .. كل ذلك بدا كأنه قد من ظلام حالك ، وقد تدلى مصباح فوق كوم مستدير من الخشب كأنه ساق ضخمة لبنات عش الغراب الأسحم وكان يبدو كما لو كان خائفاً أن ينشر ضوءه الخافت المتراقص فى هذه الظلمة الضاربة فكان يرسل ضوءاً خافتا كما لو كان يضىء لنفسه .....

كان والد فنيلا يندفع إلى الأمام بخطوات سريعة عصبية وجدتها تسير إلى جانبه وهى تثرثر فى معطفها الأسود تسمع له عند سيرها حفيف وخشخشة ، وكانا يهرولان حتى لتضطر أن تثب وثبة صغيرة رعناء بين الفينة والفينة حتى تلحق بهما . وقد حملت فنيلا متاعها مشدودا بسيور من الجلد فى لفافة أنيقة كما ضمت إلى صدرها مظلة جدتها ، وظل مقبض هذه المظلة الذى كان على هيئة رأس البجعة يعاود النقر على كتفها نقراً قصيراً حاداً كما لو كان يحثها على المسير . وكان الرجال يتخطرون أمامهم وقد أرخوا قبعاتهم ورفعوا ياقات معاطفهم . وكان بعض النسوة يهرولن وهن ملثمات . وكان طفل قمىء ملتف بشال من الصوف الأبيض لم يظهر

منه سوى ساقين وذراعين سوداوين يسير بين والديه غاضباً وهما يدفعانه فبدا كأنه ذبابة صغيرة سقطت فى إناء من اللبن....

ودوى فجأة صفير حاد جفلت منه فنيلا وجدتها صادراً من وراء أكبر حظيرة للصوف كان لايزال أثر من دخان معلقاً فوقها ، فقال والدفنيلا باقتضاب : « الصفارة الأولى » وفى تلك اللحظة بدت لهم السفينة بكتن وكأنها ستسبح بين النجوم وليس فى مياه البحر الباردة ، إذ كانت جاثمة فى جانب المرفأ المظلم وقد شدت فيها الأمراس وانتثرت فيها الأضواء الذهبية كالعقد النظيم . وتدافع المسافرون نحو سلم السفينة ، وتقدمت جدتها ووالدها ثم فنيلا من ورائهما ، وكان أمامهم درجة عالية تفضى إلى ظهر المركب فمد بحار عجوز يرتدى صداراً صوفياً يقف على مقربة .. مديداً جافة صلبة ليساعد فنيلا ، ولما وصلوا إلى ظهر المركب تنحوا عن طريق المسافرين العجلين ، ووقفوا تحت سلم حديدى يفضى إلى السطح العلوى للمركب ، وبدأوا يودعون بعضهم البعض.

قال والد فنيلا :

— « هاك متاعك يا أماه » وأعطاها لفافة أخرى.

— « أشكرك يافرنك »

— « وهل أنت محتفظة بتذاكر « الكابينة » ؟ »

— « نعم ياعزيزى »

— « والتذاكر الأخرى ؟ »

فمدت الجدة يدها داخل قفازها تتحسس التذاكر وأرتة أطرافها

— « حسنا »

وكان يبدو صارماً ولـكن فنيلا التى كانت تراقبه باهتمام لاحظت أنه يبدو متعبا حزينا . ثم دوت الصفارة للمرة الثانية فوق رؤوسهم تماما وصاح صوت يحث المسافرين على الصعود إلى السفينة .

وسمعت فنيلا والدها يقول : « أبلغى أبى خالص حبى »

فأجابت الجدة وقد استثيرت عواطفها « طبعا سأفعل ياعزيزى . . . اذهب الآن لئلا تقلع بك السفينة . . . اذهب يافرنك . . . اذهب »

— « حسنا ياأماه . . لدى ثلاث دقائق أخرى » وقد دهشت فنيلا إذ رأت والدها يخلع قبعته ثم يعانق الجدة ويضمها إلى صدره ثم سمعته يقول « فليباركك الله يا أماه » فوضعت الجدة يدها على خدها فى قفازها المصنوع من النسيج الأسود المتآكل عند موضع الخاتم من أصبعها وقالت وهى تشهق بالبكاء « بارك الله فيك ياولدى الشجاع الباسل ! »

وكان هذا المنظر أليم الوقع على فنيلا فأدارت ظهرها لهما وغص حلقها وقطبت وجهها أسى وهى تنظر إلى نجمة صغيرة على قمة الساريه ، ولـكن كان عليها أن تلتفت لها فقد أزمع أبوها أن يغادرهما « وداعا يافنيلا . . . كونى فتاة عاقلة » ثم شعرت فنيلا بشاربه البارد المبلل على خدها ، فتشبثت بطية سترته وهمست جازعة : « كم من الزمن سابقى ؟ » فما قدر أن ينظر فى وجهها وإنما هزها برفق وقال لها برقة « سننظر فى ذلك . . . أين يدك ؟ » ودس فى راحتها شيئا وقال لها : « هاك شلنا اصرفى منه إذا ما كنت فى حاجة »

شلنا . . يا للعجب ! لابد أنها ستسافر سفراً لاعودة منه فصاحت فنيلا « أبي . . ! » ولكنه كان قد ذهب وكان آخر من ترك السفينة ، ثم أعمل البحارة أكتافهم فى سلم السفينة ، وعلت فى الهواء لفة ضخمة من حبال قاتمة اللون وسقطت مرتطمة بالمرفأ ، ودق جرس . . . وعلا صفير ، وبدأ المرفأ المعتم يزايلهم وينسرب من أمامهم ويتباعد عنهم وحجب المرفأ عن السفينة موج ورشاش ، وقد تطلعت فنيلا جاهدة بكل قوها متسائلة :

أترى والد . . . . كان يتلفت إليها ، أم هو يلوح بيـــده ، أم يقف وحيداً ، أم يسير مبتعداً بمفرده ؟ وبدأت شقة الميـاه بينهما تتسع وتعتم ، وشرعت السفينة بـكتن تستدير فى ثبات متجهة إلى البحر . . لم يعد ثمة ما يدعو إلى التطلع فما عادت العين ترى سوى أضواء قليلة وساعة المدينة عالية فى الفضاء . . ثم أضواء أخرى كانت قطع صغيرة منها متناثرة فى التلال المعتمة ، وقد جذبت الريح المنعشة فنيلا من حواشى ثيابها فعادت إلى جدتها وقد اطمأن خاطرها لما رأت أن الجدة لم يعد الحزن يلوح عليها ؛ إذ كانت قد وضعت اللفافتين من المتاع الواحدة فوق الأخرى ، وجلست فوقهما وقد أطبقت يديها ومالت برأسها إلى جانب يلوح على وجهها نظرة وضـــاءة ذات مغزى ، ورأت فنيلا أن شفتيها تتحركان فحزرت أنها تصلى ولـكن المرأة العجوز أشارت إليهـا بإيماءة وضيئة كأنما تقول لهـا « انها تكاد تفرغ من صلاتها »

ثم بسطت يديها وتنهدت ثم أطبقتهما مرة أخرى وانحنت إلى الأمام ،

وبعد ذلك انتفضت انتفاضة رقيقة وقالت وهى تداعب بأصبعها شرائط قبعة فنيلا :

— « والآن يابنية... أظن من واجبنا أن ننظر فى أمر كبينتنا.. ابقى قريبا منى ، واحترسى من أن تنزلق قدمك »

— « نعم ياجدتى »

— « وكونى حريصة على ألا تعلق المظلة بسياج السلم . لقد رأيت مظلة جميلة تنشطر شطرين من جراء ذلك وأنا فى طريقى اليكم »

— « نعم ياجدتى »

ورأت فنيلا أشباحا مظلمة لرجال اتكأوا فى تراخ على سياج السفينة وعلى وهج الغليون برز أنف يلمع أو طرف قبعة أو حاجبان علتهما الدهشة، ونظرت فنيلا إلى أعلى فرأت شبحاً صغيراً متشامخاً فى الهواء وقد دس يديه فى جيوب سترته القصيرة واقفاً يحدق فى الماء... وكانت السفينة ترتج قليلا فظنت فنيلا أن النجوم ترتج معها وفى تلك اللحظة خرج من باب مواجه لها خادم شاحب الوجه فى سترة من التيل يحمل على راحته صينية رفعها إلى أعلى ومرق من أمامهما مروق السهم ، فدخلا من هذا الباب وسارا بحذر فوق الدرجة العليا للسلم المغطاة بطبقة نحاسية ثم بعدها فوق حصير من المطاط ثم نزلا مجموعة من الدرجات تنحدر انحداراً شديداً حتى إن الجدة كانت تضع كلا قدميها على كل درجة وهى تنزل . كذلك فنيلا كانت تتشبث بسياج السلم النحاسى اللزج ، ونسيت كل شىء عن مظلة جدتها التى يشبه مقبضها رأس البجعة.

وعند نهاية الدرج وقفت الجـــدة فخشيت فنيلا أن تعاود صلاتها مرة أخرى ، ولكن لا ... إنما وقفت لتخرج تذاكر

الكبينة ثم ولجا حجرة الجلوس التى كانت تتميز بضوء ساطع وجو خانق تفوح منها رائحة الطلاء وشظايا عظام محترقة ومطاط هندى . . .

وودت فنيلا أن تتابع جدتها المسير ، ولكن الجدة لم تكن راغبة فى الإسراع ؛ فقد استلفت نظرها سلة كبيرة من شطائر لحم الخنزير فاتجهت صوبها ولمست برفق أعلى الشطائر وسألت :

« بكم الشطيرة . ؟ »

فصاح فيها خادم فظ وهو يقرع شوكة بسكين « الواحدة ببنسين » وقد كان من الصعب على الجدة أن تصدق ذلك ولكنها تساءلت :

« الواحدة ببنسين . . ؟ »

فأجابها الخادم وهو يغمز بعينيه لصاحبه « نعم هو ذلك » .

فظهرت على وجه الجدة مسحة من الدهشة وهمست لفنيلا برقة وظرف « يالهم من خبثاء » ثم خرجا من الباب الذى فى أقصى الحجرة . ثم عبرا ممراً تحفه الكابينات من الجانبين ؛ فانثنت لملاقاتهما وصيفة أنيقة فى ملابس زرقاء وقد ثبتت ياقة ثوبها وكمها بدبابيس نحاسية كبيرة ، وكان يبدو أنها تعرف الجدة معرفة تامة .

فقالت لها وهى تفتح الخزانة التى تحت حوض الغسيل : « حسناً يا مسز كرين . . . لقد فزنا بك مرة ثانية ؛ فإنك قلما تخصين نفسك بكابينة . »

فأجابت الجدة : « كلا . . ولكن اهتمام ولدى هذه المرة . . . . »

فأجابتها الخادمة : « أرجو .... » ثم التفتت ونظرت نظرة رثاء إلى ملابس الحداد التى على الجدةوإلى فنيلا فى معطفهاوتنورتها السوداوين وقميصها الأسود وقبعتها المزينة بكريشة وردية اللون .

فأومأت الجدة برأسها وقالت : « إنها إرادة الله »

فزمت خادمة السفينة شفتيها وبالغت فى تنهدها وقالتوكأنما ماتقوله هو من محض تفكيرها ونسج خيالها : « إن ما أردده دائماً هو أننا سنرحل عاجلا أو آجلا ، وأن الموت حق » وتوقفت هنيهة ثم قالت :

« هل أحضر لك شيئاً يا مسزكرين . أتريدين كوبا من الشاى ؟ إنى لأعلم أنه مما لا طائل تحته أن أعرض عليك كأساً صغيرة تدفع غائلة البرد . »

فهزت الجدة رأسهاوقالت : « شكراً لك ... لستأريد شيئاً ... لقد أحضرنا معنا قليلا من البسكويت الممزوج بالنبيذ ، وأما فنيلا فلديها بعض أصابع من الموز اللذيذ . »

فقالت الخادمة : « إذن ... أراك فيما بعد ... » ثم خرجت وأقفلت وراءها الباب .

يالها من كابينة صغيرة ... وشعرت فنيلا كأنما حبست مع الجدة فى صندوق ، وكانت العين المستديرة المظللة فوق ستار المغسلة تشع ضوءاً قليلا ، فأحست فنيلا بالخجل .

وكانت مستندة إلى الباب...وما زالت محتضنة متاعها ومظلة جدتها . أترى سيخلعان ملابسهما فى هذا المكان ؟ لقد كانت الجدة من توها قد خلعت قبعتها ولفت شرايطها وثبتتها بدبوس فى «البطانة» قبل أن تعلقها ... وقد لمع شعرها الأبيض كالحرير ، وكان شعرها المعقوص مغطى بشبكة سوداء ، وقد ندر أن رأت فنيلا شعر جدتها عارياً . . . لقد بدأ منظرها غريباً ! !

قالت الجدة : « سأضع العصابة الصوفية التى صنعتها لى أمك الغالية » وحلت رباط متاعها الملفوف وأخرجتها وعصبت بها رأسها ، وكانت الشراريب الرمادية تتراقص فوق حاجبيها وهى تنظر إلى فنيلا برقة وأسى ، ثم حلت صدرتها[1] وحلت شيئاً ما تحتها وشيئاً آخر من تحت هذا ، ثم حدث صراع قصير حاد ، وتوردت وجنتا الجدة قليلا ... ثم حدث شد وجذب . لقد حلت المشد وتنفست الصعداء ، وجلست على الأريكة المصنوعه من الصوف المغطى بالشعر القصير ، وخلعت حذاءها ، والجوارب المطاطة بعناية وبطء ، ووضعت الواحدة بجانب الأخرى . وعندما خلعت فنيلا معطفها وتنورتها ولبست ثياب النوم الفضفاضة كانت الجدة على أتم استعداد ، ثم قالت فنيلا : « هل يجب أن أخلع حذائى ياجدتى ؟ إنه يشد بالرباط »

ففكرت الجدة هنيهه ثم قالت « ستشعرين براحة كبرى يابنية إن فعلت ذلك » ثم قبلت فنيلا وقالت لها بلطف «لاتنسى أن تصلى ... إن

---

(١) القطعة العليا من لباس السيدة

الله يكون أقرب إلينا ونحن على صفحة الماء ، وسأختار لنومى السرير العلوى فإنى خبيرة بالأسفار » .

« ولـكن كيف تستطيعين ياجدتى أن تصعدى إليه ؟ »

ولم تر فنيلا أمامها إلا ثلاث درجات كدرجات العنكبوت ، وضحكت المرأة العجوز ضحكة قصيرة مكتومة قبل أن تتسلق هذه الدرجات الثلاث بخفة ورشاقة ، وأطلت من السرير العلوى على فنيلا التى ملـكتها الدهشة ثم قالت الجدة « لم يدر بخلدك أن جدتك تستطيع أن تفعل هذا . . أليس كذلك ؟ »

وعندما تمددت الجدة فى فراشها سمعت فنيلا مهانفتها[1] مرة أخرى ، ولم تـكن قطعة الصابون السمراء اليابسة ذات رغوة كما كان الماء فى الزجاجة أشبه مايكون بالجلاتين الأزرق... وكم كان عسيراً على فنيلا أن تزيح عن الفراش تلك الأغطية الجاسية ! ولم يكن فى مقدورها إلا أن تشق طريقها خلالها ، وإذا كان الحال يختلف هنا فقد كان من الميسور لفنيلا أن تحضر معها لعبها ، وأخيراً استطاعت أن تدفع بنفسها داخل الفراش . ولما استلقت على فراشها وهى تلهث سمعت من فوقها همسات رفيقة كما لو كان بعضهم يخشخش بين أوراق ناعمة رقيقة باحثاً عن شىء فيها ، فعرفت أن الجدة تتلو صلواتها ...

---

(١) المهانفة ـ ضحك فوق التبسم .

ومر وقت طويل ، ودخلت الوصيفة القمرة بخطى خفاف وأسندت يدها على سرير الجدة وقالت : « لقد أشرفنا على المضايق .

— « إنه لكذلك ! »

— «ليلة رائقة... ولكن حمولة السفينة خفيفة ، فربما تضطرب بنا »

ولم تكد تتم كلامها حتى أخذت السفينة ترتفع ، وتعلقت فى الهواء ردحاً من الوقت هلعت فيه القلوب قبل أن تهوى مرة أخرى ، ويصطفق الماء بجوانبها .

وتذكرت فنيلا أنها تركت مظلة الجدة ذات رأس البجعة قائمة على الأريكة الصغيرة ، وتساءلت أتراها تنكسر إذا وقعت ؟ وكذلك تذكرت الجدة فى نفس الوقت موضوع المظلة فهمست لخادمة السفينة « ألا يضايقك أن تتكرمى بإمالة المظلة » فأجابتها الخادمة « كلا يامسز كرين » .

ولما عادت الخادمة إلى الجدة همست قائلة « إن حفيدتك الصغيرة فى نوم هادىء » . فقالت الجدة « شكراً لله على ذلك » . فقالت الخادمة « يالهذه المسكينة الصغيرة التى فقدت أمها » .

وبينما كانت الجدة تحدثها بكل شىء استغرقت فنيلا فى نومها ، ولكنه نوم لم يطل إذ استيقظت ثانية ورأت شيئاً يتحرك فى الهواء فوق رأسها ، ترى ماذا يمكن أن يكون هذا ؟ إنها لقدم صغيرة رمادية ثم اقترنت بها أخرى . . وقد بدا أن القدمين تتحسسان طريقهما إلى شىء ما ، ثم سمعت تنهداً ، فقالت فنيلا « لقد استيقظت ياجدتى » فقالت

الجدة : « آه . . هل قريبة قدمى من السلم ؟ لقد كنت أظن أنه فى نهاية هذا الطرف » فقالت فنيلا : « لاياجدتى إنه فى الطرف الآخر وسأضع قدمك عليه » ثم سألتها قائلة : « هل وصلنا ؟ »

فقالت الجدة : « نحن فى الميناء ويجب أن ننهض يابنية ، ويحسن أن تتزودى قبل ذلك بقطعة من البسكويت لتثبتى أقدامك قبل أن تقومى » .

ولكن فنيلا وثبت من فراشها ، وكان المصباح لايزال مشتعلا ولو أن الليل كان قد انصرم ، كما كان الهواء باردا . ولما نظرت فنيلا خلال تلك العين المستديرة رأت بعض الصخور على بعد ، وكانت متناثرة يحيط بها الزبد ثم رف نورس [1] ثم بدت لها قطعة مستطيلة من الأرض .

فصاحت فنيلا متعجبة كما لو كانت قد ركبت البحر مع جدتها أسابيع عدة « إنها الأرض ياجدتى » وقد غبطت نفسها لذلك ووقفت على ساق واحدة ، ومسحتها بأصابع قدمها الأخرى ، وكانت ترتجف . . لقد كان كل ماحولها مبعثاً للحزن فى المدة الأخيرة ، أترى تتغير الأمور . ؟ »

ولم يبد من الجدة شىء سوى أنها قالت : « أسرعى يابنية وسأترك موزاتك اللذيذة للخادمة لأنك لم تأكليها .

ولبست فنيلا ملابسها السوداء مرة أخرى ، وقفز من أحد قفازيها أحد الأزرار وتدحرج إلى مكان لاتستطيع أن تصل إليه ، ثم صعدتا إلى ظهر السفينة .

---

(١) طير من طيور الماء .

وكان الهواء بارداً داخل الكابينة ، غير أن الجد كان على ظهر السفينة .

وكانت الشمس لم تشرق بعد النجوم معتمة والسماء الباهتة القرة فى لون ماء البحر ، وعلى البحر انتشرت غلالة بيضاء من الضباب ، ثم انقشعت بعد ذلك .. وقد أصبح الآن فى مقدورهما أن يستبينا بوضوح أجمة صغيرة ، كما لاحت لها صور وأشكال لنبات السرخس المظلى (١) كما بدت لها تلك الشجرات الفضية الذابلة الغريبة المنظر كأنها هياكل عظمية ، وقد سهل عليهما الآن أن يريا مكان النزول إلى البر وبعض المنازل الصغيرة الشاحبة ، وتجمعت بعضها إلى جانب البعض كأنها بعض المحار على غطاء صندوق . أما باقى المسافرين فقد كانوا يصعدون ويهبطون ببطء يزيد على تباطئهم فى الليلة السابقة وقد بدت عليهم الكآبة

ثم اقتربت منهم « الأسكلة » تستقبلهم وسبحت ببطء فى اتجاه السفينة بكتن ، كما أقبل عليهم رجل يحمل لفة من الحبال ، وأقبلت أيضاً عربة ذات جواد كليل ضئيل الحجم ورجل آخر جالس على الدرج

فقالت الجدة : « إنه السيد بندردى .. آت إلينا يافنيلا » وكانت فى صوتها رنة الرضى .. وقد أزرقت وجناتها من البرد وكان ذقنها يرتجف ، وكانت تواصل مسح عينيها وأنفها الصغير الوردى اللون

ـ « هل أحضرت ... ؟ » (١)

---

(١) الذى يشبه المظلة . (٢) كانت الجدة تعنى المظلة طبعا

— « نعم ياجدتى » ورتها إياها

وطار حبل فى الهواء ثم هبط مرتطما بسطح السفينة ، ثم أنزل سلم السفينة وتبعت فنيلا جدتها إلى المرفأ ثم إلى العربة الصغيرة . وبعد هنيهة كانت العربة تدرج بعيدا ، وكانت حوافر الحصان القمىء تضرب كالطبل فوق أكوام الخشب ، ثم تغوص بعد ذلك غوصا لينا فى الطريق الرملى . لم يكن هناك أى إنسان حتى ولا نسمة من دخان

لقد انتشر الضباب ثم انقشع ولكن البحر كان لايزال غافياً وهو ينعطف برفق على الشاطىء .

ثم قال السيد بندردى : « لقدرأيت السيد كرين بالأمس إنه لم يتغير»

« لقد زودته السيدة بعدد من الفطائرفى الأسبوع الماضى . »

عندئذ وقف الجواد أمام بيت من تلك البيوت الشبيهة بالمحار . فنزلتا ووضعت فنيلا يدها على بوابة المنزل فبللت قطرات الندى الكبيرة المهتزة أطراف قفازها ، ثم ارتقيا ممرا صـــغيرا من الحصى الأبيض المستدير وعلى حافتيه زهور ناعسة مخضلة ، وكانت أزهار القرنفل المثقلة بالندى قد سقطت على الأرض . ولكن أريجها العطر كان يملأ نسمات الصباح البارد ، وكانت الستائر مسدلة فى المنزل الصغير ، ثم اعتلتا بعض الدرج إلى مشرفة [1] وكان إلى جانب الباب حذاء قديم (من النوع الذى يعلو إلى ما فوق الركبتين) وإلى الجانب الآخر وعاء كبير أحمر اللون لرى الحديقة ثم قالت الجدة :

---

(١) الفرندة .

« أف .. أف .. آه من جدك هذا ! » ثم أدارت مقبض الباب ولكنها لم تسمع صوتا فنادت « وولتر .. !! » فأجابها صوت عميق يكاد يختنق « هذا أنت يا مارى ؟ » فأجابته الجدة « انتظر ياعزيزى » ثم دفعت بمارى إلى حجرة الجلوس المعتمة وقالت لها « ادخلى هنا »

وكان على المائدة قط أبيض قابع كالجمل ولكنه نهض وتمطى وتثاءب ووثب على أطراف أصابعه فدفنت فنيلا يدها الصغيرة الباردة فى فرائه الأبيض الدافىء ، وكانت تبتسم باستحياء وهى تلاطف القط ، وتنصت إلى صوت جدتها الحنون وصوت جدها الرتيب .

ثم سمع صرير الباب وأومأت الجدة لحفيدتها قائلة « تعالى ياعزيزتى » فتبعتها فنيلا ، وكان الجد راقدا فى جانب من فراش كبير ، ولم يظهر فوق الدثار إلا رأسه المغطى بخصلة بيضاء من الشعر ووجهه المتورد ولحيته الطويلة الفضية اللون ، وكان فى رقدته هذه يشبه طائراً هرماً فى تمام يقظته ، ثم قال الجد : « اعطينى قبلة يا بنية » ولما قبلته فنيلا صاح قائلا : « إن أنفها الصغير بارد كالثلج » ثم سألها عما تمسك بيدها ... أهو مظلة الجدة ؟

وابتسمت فنيلا مرة ثانية وعلقت عنق البجعة على سياج الفراش وكان النص الآتى مكتوبا بحروف كبيرة فى إطار أسود شديد السواد موضوعا فوق الفراش .

لقد ضاعت الساعة الذهبية وانصرمت

مرصعة بستين دقيقة هى ستون جوهرة

وما من جزاء يرتجى أو عوض

فقد ذهبت فى طوايا الزمن !

ثم قال الجد « إن جدتك هى التى نقشتها » ثم عبث بخصلة شعره البيضاء ونظر إلى فنيلا ببشاشة حتى بدا لها كأنما هو يغمز لها بعينيه.

القط الذي كان يمشي بمفرده

بقـــــلم

رديارد كبلنج

إيه يا أعز أحبائى ... استمع وانتبه واصغ ... فإن ما أقصه عليك قد وقع وحدث عندما كانت هذه الحيوانات الأليفة متوحشة ؛ فقدكان الكلب متوحشاً ، وكذلك كان الحصان والبقرة والشاة والخنزير .. كلها كانت حيوانات ضارية غاية الضراوة .

وكانت تسير فى الأدغال البرية الرطبة فرادى على طبيعتها الوحشية . ولكن القط كان أشد هذه الحيوانات الوحشية ضراوة ؛ فقد كان يمشى بمفرده وكانت كل الأمكنة لديه سواء .

وكذلك كان الإنسان على التأكيد متوحشاً شديد الضراوة ولم يستأنس حتى قابل المرأة فأخبرته أنها لاتحب فيه طرائقه الوحشية فى المعيشة ، فانتقت له كهفاً جافاً مريحاً ينام فيه بدلا من أكوام أوراق الأشجار المبتلة . وفرشت أرض الكهف برمل نقى ، وأوقدت ناراً هادئة خلف الكهف ، وجففت جلد حصان برى وعلقته عند مدخل الكهف والذيل منه قد تدلى وقالت لرجلها :

« امسح قدميك يا عزيزى عندما تدخل ؛ فقد أعددنا لنا الآن بيتاً » .

وفى تلك الليلة يا أعز أحبائى أكلا شاة برية شوياها على الأحجار الساخنة متبلة بالثوم والفلفل البرى، كما أكلا بطة برية محشوة بأرز برى ، وحلبة وكزبرة برية ، ثم أكلا نخاع ثيران برية وكرزا ورمانا بريا، وذهب الرجل لينام أمام النار أسعد ما يكون بالا .

ولكن المرأة جلست تمشط شعرها ثم تناولت عظمة الكتف للشاة وهى عظمة اللوح الدهنية الضخمة ونظرت إلى العلامات العجيبة عليها ، وألقت الخشب على النار ، وصنعت سحرا ، فكان أول سحر غنائى فى الوجود .

فتجمعت الحيوانات الوحشية فى تلك الأدغال البريه الرطبة حيث استطاعت أن ترى ضوء النار من بعيد ، وتساءلت عما تعنى هذه النار .

عند ذلك ضرب الحصان البرى الأرض بقدمه وقال : « أيها الأصحاب ، أيها الأعداء . . . لماذا أشعل الرجل والمرأة هذا الضوء العظيم فى ذلك الكهف الكبير ، وأى أذى سيصيبنا منه ؟ » .

ورفع الكلب البرى أنفه فاشتم رائحة الشواء وقال : « سأذهب لأستطلع الخبر ثم أنبئكم ... أيها القط تعال معى وإنى لأرى خيراً فى هذا الأمر » .

فماء القط وقال : « أنا القط الذى يمشى بمفرده وكل الأمكنة لدى سواء فلن أذهب معك » .

فقال الكلب البرى: « فلن نكون أصدقاء إذن بعد اليوم ..» وركض ميمماً شطر الكهف ، ولما ابتعد قليلا قال القط يحدث نفسه :

« إن الأمكنة لدى سواء . . . فلماذا لا أذهب أنا أيضاً لأرى وأستطلع الخبر ثم أرجع على هواى » وانسل فى أثر الكلب البرى بمنتهى الخفة ، واختبأ فى مكان يستطيع أن يستمع فيه إلى كل ما يدور حوله .

ولما جاء الكلب البرى إلى مدخل الكهف أزاح جلد الحصان المجفف بأنفه وتنشق رائحة الشواء ، وقد أحست به المرأة وهى تنظر فى لوح الكتف ، وضحكت وقالت : « ها قد وصل أول قادم ، أيها المخلوق البرى الوافد من قلب الأدغال ... ماذا تريد ؟ »

فقال الكلب البرى : « يا عدوتى وزوج عدوى . . ماهذا الذى تفوح منه فى الأدغال هذه الرائحة الطيبة ؟ » .

حينئذ تناولت المرأة عظمة مشـــوية وألقت بها إلى الكلب وقالت :

« أيها المخلوق البرى الوافد من الأدغال ، تذوق ... واختبر » فعرك الكلب البرى قطعة العظم ؛ فكانت ألذ ما تذوق فى عمره ثم قال :

« يا عدوتى وزوج عدوى . . أعطينى قطعة أخرى » .

فقالت المرأة : « أيها الشىء البرى الوافد من الأدغال ... ساعد رجلى

فى الصيد فى أثناء النهار واحرس الكهف بالليل تنل منى ماتشتهى من العظام المشوية . . . »

فقال القط وهو ينصت فى مخبئه « إنها امرأة فطنة ولكنها ليست أكثر فطانة منى»ثم دب الكلب البرى زاحفاً داخل الكهف ووضع رأسه على حجر المرأة وقال : « يا صديقتى وزوج صديقى ... سأساعد رجلك فى الصيد فى أثناء النهار ، وأحرس الكهف بالليل » .

فقال القط وهو ينصت فى مخبئه : « إنه لكلب أحمق » وعاد إلى الأدغال الرطبة وهو يهز ذيله ويمشى بمفرده ، ولكنه لم يخبر أحداً بما حدث ، ولما استيقظ الرجل قال للمرأة « ماذا يصنع الكلب الوحشى هنا ؟ » .

فقالت المرأة : « إنه ليس وحشياً بل هو أول صديق لنا وسيبقى لنا إلى أبد الآبدين . . خذه معك عندما تذهب إلى الصيد » .

وفى الليلة التالية قطفت المرأة قبضة من الحشائش النضرة من المروج المائية وجففتها أمام النارحتى فاحت منها رائحة لعشب قطف لتوه ، ثم جلست عند مدخل الكهف وجدلت رسناً من جلد الحصان ، ونظرت فى عظمة الشاه . . تلك العظمة الكبيرة المستعرضة من عظام الكتف ثم صنعت سحراً فكان ثانى سحر غنائى فى الوجود .

وقد تساءلت الحيوانات الوحشية فى الأدغال عما حدث للكلب . وأخيراً ضرب الحصان الوحشى الأرض بحافره وقال : « سأذهب

لأستطلع الخبر وأنبئكم عن السبب الذى من أجله لم يعد الكلب إلينا . . أيها القط تعال معى » فجاء القط وقال : « أنا القط الذى يمشى بمفرده وكل الأمكنة لدى سواء فلن أذهب معك » ولكنه اقتفى أثر الحصان بمنتهى الخفة كما فعل من قبل ، واختبأ فى مكان يستطيع أن يستمع منه إلى كل ما يدور حوله .

ولما سمعت المرأة وقع الحصان البرى وهو يتعثر فى معرفته الطويلة ضحكت وقالت : « ها قد وصل الثانى . . أيها الشىء الوافد من الأدغال إنك لم تأت هنا من أجل الكلب الوحشى ، ولكن من أجل هذا العشب الجيد » .

فقال الحصان وهو يتخبط ويتعثر فى معرفته الطويلة :

« هذا حق . . امنحينى منه طعاماً »

فقالت « أيها المخلوق البرى الوافد من الأدغال احن رأسك وتقلد ما سأعطيك إياه فتأكل من هذا العشب العجيب كل يوم ثلاث مرات » .

وحنى الحصان الوحشى رأسه وأدخلت حوله ذلك الرسن المجدول وتنفس الحصان عند موطىء قدمى المرأة وقال :

« يا سيدتى وزوج سيدى سأكون خادماً لك من أجل ذلك العشب العجيب » .

فقال القط وهو ينصت فى مخبئه « إنه لحصان أحمق » وعاد أدراجه إلى الأدغال وهو يهز ذيله . ويمشى مستوحشاً بمفرده على طبيعته الوحشية، ولكن لم يخبر أحدا بما حدث .

ولما عاد الرجل والكلب من الصيد قال الرجل «ماذا يصنع الحصان الوحشى هنا ؟» فقالت المرأة :

«إنه ماعاد يحمل اسم الحصان الوحشى بل الخادم الأول . . . فإنه سيحملنا من مكان إلى مكان على مر العصور والآباد فاركبه عندما تذهب إلى الصيد .»

وفى اليوم التالى جاءت البقرة تسعى إلى الكهف ، وقد رفعت قرونها إلى أعلى لئلا تعلق بالشجر البرى وتبعها القط واختبأ كما فعل من قبل ، وحدث نفس الذى حدث ، وردد القط مااعتاد أن يردده ، ولما وعدت البقرة الوحشية أن تقدم لبنها للمرأة كل يوم فى مقابل ذلك العشب العجيب عاد القط أدراجه إلى الأدغال الرطبة وهو يهز ذيله ويمشى بمفرده كما فعل من قبل ، ولكنه لم يخبر أحداً بما حدث

ولما عاد الرجل ومعه الحصان والكلب من الصيد ، ورأى البقرة الوحشية أعاد نفس الأسئلة كما فعل من قبل ، وأجابته المرأة :

« إن اسمها لم يعد البقرة الوحشية بل مانحة الطعام الجيد ؛ فإنها ستعطينا اللبن الأبيض الدافىء على الدوام ، وسأرعاها عندما تخرج أنت مع الصديق الأول والخادم الأول إلى الصيد »

وفى اليوم التالى توقع القط البرى أن يرى حيوانا آخر يفد إلى الكهف ولكن واحدا من الحيوانات لم يتحرك فى الأدغال البرية الرطبة . لذلك مشى القط بمفرده ورأى المرأة تحلب البقرة ورأى ضوء النار الموقدة فى الكهف واشتم رائحة اللبن الأبيض الدافىء .

فقال القط : « ياعدوتى وزوج عدوى أين ذهبت البقرة الوحشية ؟ » فضحكت المرأة وقالت « أيها المخلوق البرى الوافد من الأدغال عد إليها ثانية فقد جدلت شعرن ونحيت عنى عظمة اللوح السحرية وماعدنا فى حاجة إلى مزيد من أصدقاء أو خدم فى كهفنا . .

فقال القط « لست بصديق ولا بخادم .. أنا القط الذى يمشى بمفرده وإنى لأرغب فى أن ألج كهفك هذا »

فقالت المرأة « إذاً لماذا لم تأت مع الصديق الأول فى الليلة الأولى ؟ »

فاستشاط القط غيظاً وقال « هل أبلغك الكلب الوحشى عنى قالة سوء؟ »

فضحكت المرأة وقالت : أنت القط الذى يمشى بمفرده وكل الأمكنة لديك سواء ، وما أنت بصديق ولا بخادم ، أنت قلت ذلك . . . اذهب وامش بمفردك فى الأمكنة التى هى لديك سواء . . »

حينئذ تظاهر القط بالاكتئاب وقال . « هل قدر لى أن أحرم أبد الدهر من دخول هذا الكهف والجلوس بجانب النار الدافئة وشرب اللبن الأبيض الساخن . . لقد جمعت بين الحكمة والجمال ، فلا يجدر بك أن تكونى قاسية القلب على قط مثلى . »

فقالت المرأة « إنى لأعلم أننى ذات فطانة وحكمة ولكنى لم أكن أدرى أننى ذات جمال لذلك سأعقد معك صفقة . . . إننى إذا أطريتك بعبارة واحدة كان لك أن تدخل الكهف »

فقال القط « وإن أطريتنى بعبارتين » قالت المرأة « لن أفعل ذلك عمرى ، ولكن إذا قلت عبارتين فى مديحك كان لك أن تجلس بجانب النار فى الكهف . . »

فقال القط : « وإن قلت ثلاث عبارات » قالت المرأة : « لن أقولها أبداً . . ولكنى إذا قلت ثلاث عبارات فى مديحك كان لك أن تشرب اللبن الأبيض الدافىء ثلاث مرات كل يوم وعلى مدى الزمن . . »

فقوس القط ظهره وقال « فليشهد الستر المسدل عند مدخل الكهف ولتشهد النار الموقدة من خلفه . . ولتشهد آنية اللبن الموضوعة بجانب النار ماقالته عدوتى وزوج عدوى »

ثم انطلق خلال الأدغال الرطبة يهز ذيله ويمشى بمفرده على طبيعته الوحشية .

وفى تلك الليلة عندما عاد الرجل والحصان والكلب من الصيد لم تحدثهم المرأة بالصفقة التى عقدتها مع القط خشية ألا تحظى عندهم بالقبول

وانطلق القط مبتعداً واختبأ فى الأدغال البرية الرطبة منفرداً على طبيعته الوحشية مدة طويلة حتى نسيت المرأة أمره ، ولكن الخفاش ... الخفاش الصغير المتدلى داخل الكهف مقلوب الرأس عرف مخبأ القط وكان يطير إليه كل ليلة فينبئه بما يحدث .

وذات ليلة قال الخفاش للقط : « إن فى الكهف طفلا . . إنه طفل نضير متورد اللون ممتلىء صغير الحجم ، والمرأة مولعة به أشد الولع » .

فقال القط وهو ينصت للخفاش : « وبأى الأشياء هذا الطفل مولع ؟ فقال الخفاش : « إنه مولع بالأشياء الناعمة وبكل ما يدغدغه ويثير ضحكه وهو مغرم بالأشياء الدافئة يمسك بها بين ذراعيه عندما ينام . . كما يحب أن يداعب ويلاعب . . إنه مغرم بكل هذه الأشياء »

فقال القط وهو ينصت « لقد جاء دورى »

وفى الليلة التالية مشى القط فى الأدغال الرطبة واختبأ قريباً من الكهف حتى الصباح وخرج الرجل والكلب والحصان للصيد ، وكانت المرأة مشغولة بطهى الطعام ، وكان الطفل يبكى ويعوقها عن العمل . . . لذلك حملته خارج الكهف وأعطته حفنة من الحصى يلهو بها ولكنه مافتىء يبكى . حينئذ مد القط كفه اللحمية وربت على وجنة الطفل الذى أخذ يهدل هديل الحمائم ، وتمسح بركبتيه العبلتين ودغدغه بذيله تحت ذقنه المكتنز فضحك الطفل ، وسمعته المرأة فابتسمت »

حينئذ قال الخفاش . . الخفاش الصغير المتدلى مقلوب الرأس عند فتحة الكهف :

« يا مضيفتى وزوج مضيفى وأم ولده إن شيئاً برياً وفدمن الأدغال البرية يلعب مع طفلك برقة وظرف » .

عندئذ قالت المرأة وقد شدت ظهرها :

« فلتحل البركة على هذا الشيء البرى أياكان . . فلقد أسدى إلى يداً إذ كنت مشغولة هذا الصباح . . »

وفى تلك اللحظة — يا أعز أحبائى — سقط الستر المصنوع من جلد الحصان المجفف المسدل عند مدخل الكهف وذيله إلى أسفل وأحدث صوتا : فلقد شهد الصفقة التى عقدتها المرأة مع القط . وعندما ذهبت المرأة لترفع الستر كان القط ـ ويا للعجب ـ يجلس هانئاً داخل الكهف . وقال للمرأة : « ياعدوتى وزوج عدوى وأم عدوى أنا القط ولقد ذكرت أنت عبارة فى مديحى والآن أستطيع أن أجلس داخل الكهف على مدى الأزمان ، ولكنى ما زلت ذلك القط الذى يمشى بمفرده وكل الأمكنة لدى سواء . . »

فغضبت المرأة غضباً شديداً ولم تنبس ببنت شفة وتناولت مغزلها وبدأت تغزل .

ولكن عندما ذهب القط بعيداً راح الطفل يبكى وعبثاً حاولت المرأة إسكاته فقد أخذ يقاومها ويضرب برجله وبدا محنقاً .

فقال القط : يا عدوتى وزوج عدوى وأم عدوى . . . خذى خيطاً من هذا الخيط الذى تغزلينه واربطيه إلى كرة الغزل واسحبيه على طول أرض الكهف وسأريك سحرا يجعل الطفل يضحك ضحكا عالياً بقدر ما هو يبكى الآن .

قالت المرأة : سأفعل فقد نفذ صبرى ولكنى لن أشكرك على ذلك .

وربطت المرأة الخيط إلى كرة الغزل الصغيرة المصنوعة من الفخار وسحبت الخيط على طول أرض الكهف وجرى القط وراءه وربت عليه بكفيه وكان يتمرغ رأساً على عقب وهو يقذف بالخيط إلى الخلف فوق كتفه ثم يتعقبه بين رجليه الخلفيتين ثم يتظاهر بأنه أضاعه ثم ينقض عليه مرة أخرى حتى ضحك الطفل ضحكا عالياً بقدر ما كان يبكى ، ثم قام يدب وراء القط وهو يمرح فى أنحاء الكهف حتى نال منه التعب فقر فى مكانه لينام والقط بين ذراعيه ...

ثم قال القط « والآن سأغنى للطفل أغنية تجعله ينام ساعة من الزمن وبدأ القط يموء مواء خفيضاً .. خفيضاً ثم عالياً حتى استغرق الطفل فى النوم . . .

فابتسمت المرأة وأطلت على الاثنين وقالت : « إنه عمل رائع . . . لا جدال فى أنك ماهر جداً أيها القط » .

وفى التو واللحظة يا أعز أصـــدقائى . . . تهافت دخان النار التى خلف الكهف هابطاً من السقف على شكل غمامة وأحدث صوتاً ، لأن النار شهدت الصفقة التى عقدتها المرأة مع القط ، ولما انقشع الدخان وياللعجب . ! كان القط يجلس هانئاً بجانب النار . . .

وقال القط « ياعدوتى وزوج عدوى وأم عدوى .. هذا أنا القط ؛ فقد قلت عبارة ثانية فى مديحى ، والآن يمكننى أن أقعد بجانب النار الدافئة خلف الكهف إلى أبد الآبدين ، ولكنى ما زلت ذلك القط الذى يمشى بمفرده وكل الأمكنة لدى سواء »

فاستشاطت المرأة غضباً وأسدلت شعرها وأطعمت النار بمزيد من الخشب وأخرجت عظمة لوح الكتف العريضة وبدت تصنع السحر الذى سيردها عن أن تقول عبارة ثالثة فى مدح القط ... ولم يكن سحراً غنائياً يا أعز أحبائى ، بل كان سحراً صامتاً وبدأ السكون يطبق على الكهف شيئاً فشيئاً حتى إن فأراً صغيراً زحف من أحد الأركان وجرى عبر الكهف .

فقال القط : « إيه ياعدوتى وزوج عدوى وأم عدوى ... أهذا الفأر الصغير من صنائع سحرك ؟ »

فاستعاذت المرأةوقالت «أبداً ليس الأمر كذلك» وألقت بعظمة اللوح ووثبت فوق كرسى واطىء أمام النار وعقصت شعرها إلى أعلى على عجل خشية أن يطأه الفأر...فقال القط مترقباً «إذاً فما يضيرنى شىء إذا أنا ازدردته» .

فقالت المرأة وهى تعقص شعرها «أبداً ... كله بسرعة فأكون لك أبد الدهر من الشاكرين ... »

وفى وثبة واحدة أمسك القط بالفأر فقالت المرأة :

« ألف شكر لك ... إن الصديق الأول ليس له من السرعة ما يمكنه من أن يمسك بالفيران الصغيرة كما تفعل أنت ... لابد أنك قد أوتيت قدراً عظيما من الحكمة ... »

وفى التو واللحظة يا أعز أصدقائى ... انشطرت آنية اللبن التى كانت بجانب النار شطرين وأحدثت صوتا ؛ فقد شهدت الصفقة التى عقدتها

المرأة مع القط ولما قفزت المرأة من الكرسى الذى كانت تسند إليه قدميها كان القط ... وياللعجب ، يلعق اللبن الأبيض الدافىء الذى بأحد شطرى الإناء المكسور !

ثم قال القط : « ياعدوتى وزوج عدوى وأم عدوى ... هذا أنا القط وقد قلت العبارة الثالثة فى مديحى ، وإن فى مقدوى أن أشرب اللبن الأبيض الدافىء ثلاث مرات فىاليوم علىمدى الأزمان ، ولكنى مازلت القط الذى يمشى بمفرده وكل الأمكنة لدى سواء » ...

فضحكت المرأة ووضعت للقط إناء ممتلئاً باللبنالأبيض الدافىء وقالت « أيها القط إنك فى مثل براعة إنسان ، ولكن تذكر أن الصفقة لم تعقد بينك وبين الرجل أو الكلب ولست أدرى ماذا يفعلان بك عندما يعودان إلى المنزل .

فقال القط « ليس لى بذلك شأن ... فإنى إن أخذت مكانى فى داخل الكهف بجانب النار وأخذت نصيبى من اللبن الأبيض الدافىء ثلاث مرات كل يوم فلست أعبأ بما يفعلان » .

ولما عاد الرجل والكلب فى ذلك المساء إلى الكهف أخبرتهما المرأة بقصة الصفقة ، بينما كان القط جالساً بجانب النار يبتسم ، عندئذ قال الرجل « حسنا ولكنه لم يعقد الصفقة معى ، ولا مع أفاضل الرجال من بعدى » ثم خلع حذاءيه المصنوعين من الجلد ، وأخذ فأسه الصغيرة المصنوعة من الحجر فكان من ذلك ثلاثة أشياء ، وأحضر قطعة من

الخشب وبلطة ، فأصبحت خمسة أشياء ، ونسقها فى صف واحد وقال « الآن نعقد صفقتنا ... إنك إن عجزت عن أن تمسك الفيران دائماً أبداً عندما تكون فى الكهف فإنى سأرميك بهذه الخمسة الأشياء كلما رأيتك . وكذلك سيفعل أفاضل الرجال من بعدى ...

عندئذ قالت المرأة وهى تنصت « إنه لقط ماهر ولكنه ليس فى مهارة رجلى » وأخذ القط يحصى الأشياء الخمسة ... وقد لاحت مستديرة الشكل إلى حد كبير ثم قال « سأمسك الفيران عندما أكون فى الكهف على مدى الأباد والعصور ، ولكنى لا أزال ذلك القط الذى يمشى بمفرده وكل الأمكنة لدية سواء ... »

فقال الرجل « ليس ذلك بمحضر منى ... ولو أنك لم تفه بذلك أخيراً لكنت نحيت عنك هذه الأشياء إلى أبد الآبدين ، أما الآن فإنى سأرميك بحذائى وبلطتى الصغيرة (ثلاثة أشياء) كلما لاقيتك وكذلك سيفعل أفاضل الرجال من بعدى ... »

فقال الكلب « تمهل قليلا . . . إنه لم يعقد الصفقة معى ولا مع أفاضل الكلاب من بعدى » وكشف عن أنيابه ومضى يقول : « فإن أنت لم تكن على الطفل مشفقاً على مر الأيام والعصور فسوف أطاردك وأمسك بك . فاذا ما وقعت فى يدى أعملت فيك أنيابى كذلك سيفعل أفاضل الكلاب من بعدى . . .

فقالت المرأة : « إنه لقط ماهر ولكنه ليس فى مهارة الكلب » عند ذلك أحصى القط أسنان الكلب . . . وقد بدت قاطعة مسننة

وقال : « سأكون على الطفل مشفقاً على مر الأيام والعصور . . . عندما أكون فى الكهف ما دام لا يجذبنى من ذيلى بعنف ، ولكنى ما زلت ذلك القط الذى يمشى بمفرده وكل الأمكنة لدى سواء ... »

قال الكلب « ليس ذلك بمحضر منى ، ولو أنك لم تختتم حديثك بهذا لأقفلت فمى أبد الدهر . أما الآن فإنى مطاردك فوق الشجرة كلما لاقيتك وكذلك سيفعل أفاضل الكلاب من بعدى . . . »

حينئذ رمى الرجل القط بحذاءيه وبلطته الصغيرة (ثلاثة أشياء) وجرى القط خارج الكهف إلى أعلى الشجرة والكلب يتعقبه . ومن ذلك اليوم يا أعز أصدقائى . . . ثلاثة من كل خمسة من أفاضل الرجال يلقون بالأشياء على القط أينما يلاقونه ، وكذلك كل الكلاب من أهل الفضل يطاردونه إلى أعلى الشجر . . . كما حرص القط على أداء دوره فى الصفقة فهو يقتل الفيران وهو شفيق بالأطفال عندما يكون فى البيت ماداموا لا يجذبونه من ذيله بعنف ، وعندما يفرغ من هذا . . وبين آن وآن ، وعندما يعتلى القمر كبد السماء ويهبط الليل فهو ذلك القط الذى يمشى بمفرده وكل الأمكنة لديه سواء . . . .

فيخرج إلى الأدغال الرطبة أو يرتقى الأشجار البرية أو يسير على الأسطح المهجورة الرطبة وهو يهز ذيله ويسير منفرداً على طبيعته الوحشية .

كيف قتل الضابط الثعلب

بقـــلم

السير كونان دويل

لم يكن أفراد الجيش الإنجليزى بأمرة « ولنجتن » يكنون كراهية راسخة عميقة الجذور إلا لضابط واحد فى جميع جيوش فرنسا .

لقد كان بين الفرنسيين النهابون وأهل البطش والجبروت، والمقامرون والمبارزون المتهورون والفاسقون ... وإنا لنصفح عن كل أولئك ؛ فقد كان لهم نظراء فى صفوف الإنجليز ، ولكن ضابطاً واحداً فى جيش « ما سينا » ارتكب جريمة جاوزت حد الوصف ، ولم يسمع بمثلها . . . بغيضة لا يشار إليها إلا باللعنات آخر الليل عندما تطلق الزجاجة الثانية ألسنة الرجال من عقالها . وقد سارت بها الأنباء إلى انجلترا ، وكان السادة من أهل الريف الذين لم يبلغ أسماعهم سوى الطفيف من أنباء هذه الحرب تحتقن وجوههم ، وتتضرج حنقاً عندما يأتيهم نبؤها .

وكان أصحاب الأراضى فى المقاطعات يرفعون إلى السماء قبضاتهم فيبدو ما على أديمها من الكلف[1] وهم يلعنون ، ومع هذا فمن يكون مرتكب هذه الفعلة النكراء سوى صاحبنا البريجادير [2] إيتين جيرار

(١) النمش . . .
(٢) الاميرالاى

من خيالة الكنفلانز ... ذلك الفارس الظريف المزهو بريشة قبعته . وهو من بين الألوية الستة للخيالة الخفيفة معبود النساء ، والغريب فى هذا الأمر إن ذلك الشهم قد ارتكب فعلته النكراء وجعل من نفسه أبغض إنسان إلى نفوس الناس فى شبه الجزيرة [1] دون أن يدرى أنه ارتكب جرما لايكاد يوجد له اسم فى مراجع لغتنا .. ولقد مات بعد أن طعن فى السن وما علم قط وهو فى ثقته الراسخة بنفسه — تلك الثقة التى جملت أو شوهت خلقه — أن آلافا عديدة من الإنجليز يفرحون لو أتيح لهم أن يزهقوا روحه بأيديهم ، بل على النقيض من ذلك كان يعد مغامرته تلك من بين مفاخره الأخرى التى أنعم بها على العالم .

وكم من مرة كان يقهقه ويهنىء نفسه ، وهو يقصها على الجمع المشوق الذى التف حوله فى ذلك المقهى المتواضع ، فى الفترة التى يتناول فيها عشاءه إلى أن يبدأ لعبة الدومينو . . . حين كان يحدثهم بين الدموع والضحكات عن عهد نابليون الذى ولى ، والذى فاق حد التصور : عندما هبت فرنسا كأنها ملاك النقمة رائعة مروعة أمام قارة تنحنى أمامها جازعة ... فلنصغ إليه وهو يقص قصته من وجهة نظره الخاصة .

قال : لابد أنكم تعلمون أيها الرفاق أننى فى أواخر عام ١٨١٠ وماسينا

---

(١) يقصد بها شبه جزيرة ايبريا ، لأن الجيوش الفرنسية كانت تحتل اسبانيا فى ذلك الوقت .

والآخرين رددنا ولنجتن إلى الوراء حتى ظننا أننا سنلق به وبجيشه فى نهر التاجه ، ولكن بينما كنا على مسافة خمسة وعشرين ميلا من لشبونه ، وجدنا أننا خدعنا ، فما فعل هذا الإنجليزى شيئاً إلا أن بنى خطا ضخما من الحصون فى مكان يسمى « تورس فدراس » حتى إننالم نقو على اقتحام واحد منها . لقد مدوا خطوطهم عبر شبه الجزيرة كلها . . كان جيشنا بعيداً عن أرض الوطن بعداً لم نجسر معه على أن نخاطر بالتعرض للهزيمة ؛ فقد تعلمنا من قبل فى بوساكو أن قتال هؤلاء القوم ليس ملهاة اطفال ، ولذا لم نكن نستطيع أن نفعل إلا أن نشرع فى الإحاطة بهم أمام هذه الخطوط ، ونحاصرهم بكل ما أوتينا من قوة .

وقد بقينا هناك ستة أشهر فى قلق وتوجس ، حتى إن ماسينا قال بعد ذلك إنه لم تبق على رأسه شعرة لم يجللها المشيب . أما أنا فلم أعبأ كثيرا بحالنا ، بل انصرفت للعناية بجيادنا التى كانت فى مسيس الحاجة للراحة وللعلف الأخضر . .

وأما فيما عدا ذلك ، فقد قضينا الوقت فى احتساء النبيذ محاولين به أن تمر الظروف على أحسن حال ممكنة . ولقد كانت هناك سيدة فى « سانترم » ولكن سألزم الصمت فإن من واجب الرجل الشهم ألا يذكر شيئا ولو أنه يمكنه أن يشير إلى أن فى مقدوره أن يقول الكثير .

وذات يوم . . أرسل ماسينا إلى فوجدته فى خيمته وأمامه خريطة كبيرة مثبتة على نضد . ونظر إلى فى سكون بعينه الواحدة الفاحصة ، فشعرت من نظرته أن الأمر خطير . . . لقد كان عصبيا برما ، لكن

هيئتى أعادت إليه الثقة والطمأنينة ، وما أجمل أن يكون الرجل على صلة بالشجعان من الرجال . . !

قال لى ماسينا « أيها الكولونيل إيتين جيرار . لقد سمعت دائما أنك ضابط شهم مقدام »

ولم يكن لمثلى أن يؤكد مثل هذا القرار ، ومع ذلك فقد كان من الحمق أن أنكره . لذلك صفقت مهمازاً بآخر وحييت التحية العسكرية ثم قال : « وأنت أيضاً فارس ممتاز » فأمنت على كلا » ، وأردف قائلا :

ـ « ثم إنك أحسن لاعب سيف فى الألوية الستة للخيالة الخفيفة » . لقد كان ماسينا دقيقا فى معلوماته ، ثم قال :

ـ « والآن . . إنك لو نظرت إلى الخريطة التى أمامى فلن يصعب عليك أن تفهم ما أود منك أن تفعله . . . هذه خطوط (استحكامات) تورس فدراس ، وإذا نظرت إليها أمكنك أن تدرك أنها تغطى مساحة واسعة ، وأن تتحقق أن الانجليز لا يمكنهم أن يدافعوا إلا عن موقع هنا وموقع هناك ، وعبر هذه الخطوط خمسة وعشرون ميلا من الريف الفسيح تمتد إلى لشبونة ، وإنه ليهمنى أن أعرف كيف تتوزع قوات ولنجتن فى كل هذا الفضاء ، وإنى لأرغب فى أن تذهب وتتثبت من كل هذا . . »

وعندما سمعت هذه الكلمات سرى الدم بارداً فى عروقى وقلت :
ـ « سيدى . . حاشا لكولونيل فى الخيالة الخفيفة أن يقوم بدور جاسوس . . . »

فضحك وربت على كتفى وقال : « لست من الهوسار (الخيالة) إن لم تكن سريع الغضب . . ستفهم إذا أصغيت لى أننى لم أسألك أن تقوم بدور جاسوس ، ما رأيك فى هذا الجواد؟ » وكان قدقادنى إلى فتحة خيمته فرأيت جنديا من جنود الخيالة يقود جيئة وذهابا جواداً يثير غاية الإعجاب ، لقد كان أشهب أبقع ليس بالطويل ولا تعلو قامته أكثر من خمس عشرة قبضة برأس قصير ، وعنق مقوس فاتن يرقى به إلى الدم العربى ، ومع أن له وركين وكتفين عضليين فقـــد كان له ساقان دقيقتان ، حتى إن مجرد نظرى إليه هزنى طربا . . امرأة فاتنة وحصان فاره ، ما أنظر إليهما حتى تتحرك مشاعرى إلى الآن مع أنه مر على سبعون شتاء دبت قشعريرتها فى أوصالى . !

وفى استطاعتكم إذن أن تقدوروا كيف كنت فى السنة العاشرة بعد الألف والثمانمائة .

قال ماسينا : « هذا فولتيجير أسرع جواد فى جيشنا ، وأريد منك أن تبدأ الليلة فتسير حول خطوط العدو عند (أحد الجناحين) ثم تشق طريقك عنـد المؤخرة ، وتعود من الجناح الآخر حاملا معك أنباء تنظيماته ، ولسوف تلبس زيك الرسمى حتى إذا أسرت كنت فى مأمن من الهلاك بتهمة الجاسوسية . ومن المحتمل أنك ستجتاز الخطوط دون أن يناوئك أحد ؛ فان المراكز الحربية مبعثرة ، فإذا ماصرت هناك فبمقدورك فى ضوء النهار أن تسبق أى راكب تقابله ، وإذا ماتجنبت الطرقات يمكنك أن تفوز بالنجاة دون أن يلحظك أحد ، فإذا لم تقدم

نفسك مساء غد فسأفهم من ذلك أنك أسرت ، وحينئذ سأقدم لهم الكولونيل بترى بديلا منك »

آه ... لقد امتلأ قلبي نشوة وفخاراً ، وأنا أقفز إلى سرج هذا الحصان الأصيل وأركض به جيئة وذهابا لأبين للمارشال كيف سلس لى قياده !.

لقد كان جواداً فارها ، وكان كل منا جديراً بصاحبه ؛ فإن ماسينا صفق بيديه وصاح طربا ، ولم أكن أنا بل هو الذى قال : « إن الحيوان النبيل جدير براكب نبيل »

وقد رأيت على وجه الصارم المغضن أنه لم يبق عنده أى شك فى أنه وقع على الرجل الذى سيحقق له مرماه ، وذلك عندما مررت أمامه للمرة الثالثة وأنا أسابق الريح وقلنسوتى المريشة[1] تهفهف فوق رأسى وسترتى الحربية تنساب خلفى ، ثم سللت حسامى ورفعت مقبضه إلى شفتى محيياً ، وعدوت إلى مقر إقامتى بالمعسكر ، وقد انتشرت الأنباء بأنه قد وقع على الاختيار للقيام بمهمة ، فخرج الأوغاد[2] الصغار من خيامهم زرافات يهتفون لى . آه . . . إن عينى الكليلتين ليطفر منهما الدمع عندما أذكر كيف كانوا فخورين بقائدهم كما كنت فخوراً بهم . . . لقد كانوا حقاً جديرين بقائد مقدام . .

وكانت الليلة تنبىء بأنها ليلة عاصفة ، وقد صادف ذلك هوى فى نفسى ؛ فقد كانت بغيتى أن أحتفظ بنبأ رحيلى وأن أجعله سراً دفيناً ؛

---

(١) ذات الريش (٢) يقصد جنوده

فمن الواضح أنه لو علم الانجليز أننى بعثت لمهمة من الجيش لاستنتجوا بطبيعة الحال أن شيئاً هاما على وشك الوقوع ، ولذلك أخذوا حصانى إلى ما وراء نقط الحراســـة كما لو كان قد أخذ ليسق ، وقد لحقت بهم وركبته هناك ، وكان معى خريطة وبوصـله وورقة تحمل تعليمات المارشال .

وبدأت مغامرتى متقلداً سيفى ، وهذه الأشياء فى صـدر سترتى العسكرية . كان الرذاذ يتساقط ، وكانت الليلة غير قمراء . لذلك يمكنكم أن تتصوروا أنها لم تكن كثيرة البهجة ، ولـكن قلبي كان يطفح بشراً لذلك التكريم الذى خلع علىّ ، والمجد الذى ينتظرنى وهذه المخاطرة التى ستسجل رقماً آخر فى مجموعة مفاخرى المتألقة التى حولت معى حسام الضابط إلى عصا المارشال ، آه ... ما أعجب ما كنا نحلم به نحن أهل الجهالة إذ كنا فى نضرة الشباب ثملين بحميا الظفر !!

هل كان فى مقدورى أن أتنبأ تلك الليلة عندما امتطيت حصانى وأنا المختار من بين ستين ألفا من الرجال .. بأننى سأقضى حياتى أزرع الكرنب فأربح منه مائة فرنك فى الشهر ، وآسفاه ..! يا لشبابى وأحلامى ورفاقى .. ! ولـكن عجلة الأيام تدور ولن تقف أبداً . اصفحوا عنى أيها الصحاب ؛ فللرجل المسن مواطن ضعفه ....

وكان طريقى إذ ذاك يمتد عرضاً فى مواجهة الأرض المرتفعة عند تورس فدراس ثم فوق غدير مار ببيت مزرعة أتت عليه النيران فأصبح معلماً من معالم الطريق ، ثم خلال غابة من البلوط الفلينى النضر ، ثم

إلى دير القديس أنطونيوس الذى يميز ميسرة موقع الإنجليز . وهنا استدرت جنوبا وهبطت التلال المعشوشية فى هدوء ؛ فنى هذا المكان كان ما سينا يظن أنه من الميسور أن أشق طريقى خلال هذا الموقع بغير أن يلحظنى أحد ، فسرت على مهل . . إذ كان الظلام مسدلا أستاره حتى ما كنت أستطيع أن أرى راحة يدى ؛ فنى مثل هذه الحالات أترك اللجام رخوا وأترك حصانى يختار طريقه ، وقد اتجه فلتجير بثقة إلى الأمام ، وكنت قانعاً بالجلوس على متنه وأنا أختلس النظر إلى ما حولى متحاشياً كل ضوء . ولقد تقدمت محاذراً زهاء ثلاث ساعات حتى لاح لى أنه لابد أننى خلفت ورائى جميع الأخطار ، ثم اندفعت بنشاط أكثر من ذى قبل لأننى رغبت أن أكون فى مؤخرة جيش العدو كله عند طلوع الفجر . وكانت شتى كروم العنب تنتشر فى هذه الأنحاء ، وتصبح فى الشتاء سهولا فسيحة لايجد فيها الفارس إلاالقليل من الصعاب فى طريقه .

ولكن ماسينا لم يقدر دهاء هؤلاء الإنجليز حق قدره ؛ فقد بدا لى أنه لا يوجد خط دفاع واحد بل ثلاثة خطوط ، وكان الخط الثالث الذى كنت أعبره فى تلك اللحظة أشدها منعة ...

وبينما كنت راكبا وأنا أتيه عجباً بنجاحى : إذ ومض أمامى فجأة ضوء مصباح وشاهدت لمعان ماسورات بنادق صقيلة ، وو ميض سترة حمراء ، وصاح صوت . . . ياله من صوت ! « من يسير هناك ؟ » فانحرفت يمنة ، وانطلقت كمجنون ، ولكن عشرات من سيول اللهب خرجت من الظلام ، وأزت الطلقات من حولى ، ولم يكن الصوت

غريباً على مسمعى يا رفاق ، ولو أنى لن أتحدث كجند أبله فأقول إننى أحببت هذا الصوت فى يوم من الأيام . . .

ولكنه على أقل تقدير ماعاقنى يوما عن التفكير بصفاء ذهن ، لذلك عرفت أنه لا مناص لى من أن أنهب الأرض نهباً ، وأجرب حظى فى مكان آخر ؛ فدرت حول نقطة الحراسة الإنجليزية ، ولما لم أسمع من ناحيتهم ركزاً جزمت بحق أنى أصبحت أخيراً بين خطوط دفاعهم ، وقد اتجهت جنوبا مسافة خمسة أميال . وكنت أقدح صوفاناً بين آن وآن لأنظر إلى بوصلة الجيب التى معى ، وعلى حين فجأة خر الحصان من تحتى ميتاً لا حراك به ... ما ترنح ولا ندت منه حشرجة !

وإنى لأشعر بالغصة تعاودنى مرة أخرى عندما أستعيد ذكرى هذه اللحظة . . وما كنت لأدرك ذلك ولكن طلقة من طلقات ذلك الحارس الجهنمى اخترقت جسده ، وقد ذهب هذا المخلوق النبيل والحياة ملء إهابه ، ما استضعف ولا توجع ؛ فمن لحظة كنت آمنا على ظهر أسرع وأرشق جواد فى جيش ماسينا ، وفى لحظة تلتها رقد الجواد على جنبه لا يساوى إلا ثمن جلده . ووقفت هناك ، وأنا راجل [1] من فرقة الخيالة أشد مخلوقات الله عجزاً ووقوعا فى الحرج . ماذا أصنع بحذائى المرقب ومهمازى وسيفى المتدلى ، وكنت قد توغلت فى خطوط العدو ؟ كيف السبيل إلى الرجوع ؟ وليس يعترينى أى خجل إذ أقول إننى أنا إتيين جيرار . . جلست على حصانى الميت ودفنت وجهى بين يدى فى يأس

---

(١) راجل عكس « راكب »

وقنوط ، وقد لاحت تباشير الصباح فى المشرق وستصبح الدنيا نهارا بعد نصف ساعة . ألا يحطم قلب الجندى أن يشق طريقه منتصرا على كل عقبة أمامه ، ثم يجد نفسه فى هذه اللحظة الأخيرة تحت رحمة أعدائه ، وقد فشل فى مهمته ووقع فى الأسر . . ؟ ولكنها الشجاعة أيها الرفاق ! فقد يصادف أعظم الشجعان ساعات من ضعف وخور ، ولكن لى روحا كقطعة الفولاذ كلما زدت فى ثنيها ارتدت إليك أشد استعلاء . نوبة من اليأس يعقبها جنانٌ ثابت وقلب متوقد . . لم أفقد كل شىء بعد ؛ فأنا الذى اجتزت كثيراً من الأخطار سأجوز هذا الخطر أيضاً . فنهضت من فوق حصانى وتدبرت فيما يجمل بى أن أصنع . . .

فأولا وقبل كل شىء كان من المؤكد أننى لا أستطيع أن أعود من حيث أتيت ، وقبل أن أجتاز الخطوط سيطلع النهار ، ويجب أن أختبىء واكرس الليلة التالية للهرب : فأخذت السرج والقرابين واللجام من فلتيجير المسكين وخبأتها فى بعض الأدغال ، حتى إذا عثر عليه أحد لا يستطيع أن يعرف أنه جواد فرنسى . . وبعد أن تركته هناك تحولت باحثا عن مكان أستطيع أن أكون به فى مأمن فى أثناء النهار . .

وكنت أرى نيران المعسكرات فى كل ناحية على جوانب التلال ، وبدأت أشباح الرجال تتحرك حولها . . يجب أن أختبىء حالا وإلا هلكت ، ولكن أين أختبىء ؟ لقد وجدت نفسى فى كرمة ثبتت قوائمها وذهب غرسها ، ولم يكن هناك ستر ، وفضلا عن ذلك فإنى أريد بعض الطعام والماء قبل أن تحل بى ليلة أخرى ، فهرولت بجنون خلال الظلمة

الآخذة فى الزوال واثقاً أن الحظ سيكون رفيق . . أيها الرفاق إن الحظ امرأة يفتنها دائما الفارس الشهم من الهوسار (الخيالة)

ثم اجتزت الكرمة متعثرا ، ولاح شيء أمامى . وأتيت دارا عظيمة مربعة الشكل ذات بناء طويل منخفض آخر على جانب منها ، وعندها تلاقت طرق ثلاثة وكان من الميسور أن أعرف أنها الخان . . ولم يكن ثمة ضوء فى النوافذ ، وكان كل شيء مظلماً ساكناً ، ولكنى عرفت طبعاً أن مثل هذا المأوى المريح يشغله شخص عظيم المقدار . . .

ومع هذا فقد كنت تعلمت أنه كلما ازداد الخطر قربا كان المكان فى الحقيقة أكثر أمناً ... لذلك لم أكن راغباً بأية حال من الأحوال فى ألا أضع ثقتى فى هذا الملاذ ، وكان واضحاً أن البناء المنخفض هو حظيرة الماشية ، فدلفت إليها زاحفاً لأن الباب لم يكن موصداً . وكان المكان آهلا بالعجول والأغنام ، جمعت هناك لاشك لتكون بمأمن من المغيرين ، وكان هناك سلم يفضى إلى علية[1] فصعدت إليها . وأخفيت نفسى مسترخياً بين بعض بالات من التبن فى المكان العلوى منها ، وكان لهذه العلية نافذة صغيرة مفتوحة ، وكنت أستطيع أن ألقى منها نظرة على واجهة الخان ، ثم قبعت مترقباً لما يكون ..

وقد وضح لى تواً أننى لم أكن مخطئاً عندما ظننت أن هذا المأوى يشغله شخص ذو شأن ؛ فبعد وقت قصير . . بعد أن تبلج الفجر وصل

---

(١) غرفة تعلو منزلا وتكون تحت سقفه

فارس إنجليزى من الخيالة الخفيفة برسالة ، ومنذ ذلك الوقت بدأ المكان يصخب ، والضباط يمتطون صهوات جيادهم ، ويذهبون ...

وكان نفس الاسم تردده شفاهم دائماً ... السير ستبلتن

وكم كان الأمر صعباً على أن أقبع هناك ظامئاً ، وأنا أشاهد القنانى الكبيرة يحضرها صاحب الخان إلى هؤلاء الضباط الإنجليز !

ولكنى كنت أتلهى بالنظر إلى وجوههم النضرة الحليقة . وقد علتها علائم عدم الاكتراث . ولقد كنت أتساءل عما كانوا يظنونه إذا عرفوا أن رجلا مرموق المكانة يرقد على مقربة منهم ، وبينما أنا مستلق أرقب ما يحدث رأيت منظراً ملأنى عجباً . إن عجرفة هؤلاء الإنجليز شيء لا يصدق ، فماذا تظنون اللورد ولنجتن قد فعل عندما وجد أن ماسينا قد سد عليه المسالك ، ولم يمكنه من تحريك جيشه ؟ وإنى لأستطيع أن أدلى بألوان من الحدس والتخمين ؛ فلقد تقولون إنه أخذته سورة الغضب أو غلب عليه اليأس أو أنه جمع عسكره وحدثهم عن المجد والوطن قبل أن يدفع بهم إلى موقعة فاصلة ... لا .. إن السيد اللورد لم يفعل شيئاً من هذا القبيل ، وإنما أرسل سفينة سريعة إلى إنجلترا لتحمل له عدداً من كلاب الصيد ، وقرر هو وضباطه صيد الثعلب . إن ما أقوله لكم حق ؛ فوراء خطوط تورس فدراس أعد هؤلاء الإنجليز المجانين طراد الثعلب ثلاث مرات فى الأسبوع ، وقد كنا سمعنا عن ذلك فى المعسكر ، والآن قدر لى أن أشاهد بنفسى أنه حق .

فعلى طول الطريق التى وصفتها أقبلت نفس هذه الكلاب . ثلاثون أو أربعون منها بيض وسمر ، وقد رفع كل منهـا ذيله بزوايا متماثلة كأنه سونكى أحد « رجال الحرس الإمبراطورى القـديم [1]» ، وأقسم أنه كان منظراً أخاذاً . ولقد ركب وراءهم وفى وسطهم ثلاثة رجال بقلانس محددة الأطراف ومعاطف حمراء عرفت أنهم الصيادون ، وجاء وراءهم عدد من الخيالة بأزياء متعددة الأنواع يتتابعون على طول الطريق مثنى وثلاث يتحدثون ويضحكون ، ولم يبد عليهم أنهم عازمون على أن يتجاوزوا السير خبباً [2] ، كما لاح لى أنه لابد أن يكون ثعلبـاً بطيئاً ذلك الذى عزموا على صيده ، وعلى كل فإن هذا شأنهم ، وليس بشأنى ! وما هى إلا هنيهـة قصيرة حتى مروا جميعاً بنـافذتى وغابوا عن الأنظار .

ولبثت أنا أرقب مايحدث متأهباً لأية فرصة تتاح لى . . وفى هذه اللحظة رأيت ضابطا راكباً يخب فى الطريق فى زى أزرق يشبه زى مدفعيتنا المتنقلة . وقد كان كهلا بديناً بعارضين أشيبين ، وتوقف وبدأ يتحدث إلى ضابط من ضباط المراسلة فى فرقة الفرسان كان واقفاً خارج الخان . وهنا أدركت قيمة تعلمى اللغة الانجليزية ؛ فقد كان فى مقدورى أن أسمع وأن أفهم كل مايقال . . قال الضابط :

---

(١) يقصد الامبراطور نابليون .

(٢) الخبب : سير دون الركض

« أين المكان الذى نبدأ منه المطاردة[1] ؟ فظننته جائعاً يشتهى شريحة من لحم البقر ، ولكن الآخر أجابه « إن المكان على مقربة من التارا » لذلك عرفت أنه يسأل عن اسم مكان .

ثم قال المراسلة « إنك متأخر ياسير جورج »

فأجاب « نعم . . لقد كانت عندى محكمة عسكرية ، هل ذهب السير ستبلتن كتن ؟ »

وفى هذه اللحظة فتحت نافذة وأطل منها شاب وسيم فى زى فاخر وقال : « هاللو موراى. . هذه الأوراق اللعينة تعوقنى ، ولكنى سأكون فى أعقابك » .

— « حسنا ياكتن أنا الآن متأخر لذلك سأتابع المسير »

وبينما كان يسير فى طريقه قال الجنرال الشاب المطل من النافذة لضابط المراسلة الذى كان واقفاً تحتها :

— « يمكنك أن تأمر سائسى بأن يحضر لى جوادى »

فركب المراسلة واتجه إلى حظيرة بعيدة ، وعاد بعد دقائق قليلة سائس إنجليزى رشيق يلبس قبعة محلاة باشرطة، وهو يقود جواداً آخذاً بزمامه ، وياللعجب . . . أيها الرفاق ! إنكم لا تعرفون المستوى الرفيع الذى يمكن أن يبلغه جواد حتى تشاهدوا جواد صيد إنجليزى أصيل ...

---

(١) meet وقد ظنها صاحبنا اتيان جيرار انها كلمة meat بمعنى اللحم

كان جواداً فارها طويل القامة عريضاً قويا ومع ذلك فى خفة الغزال ورشاقته ... أسود فاحم السواد، وأما عنقه وكتفاه وقوائمه وأرساغه (١) فيكلّ عنها الوصف ويقصر البيان. كانت الشمس تتألق فوقه كما لو كانت تتألق فوق عاج صقيل، وكان يرفع حوافره فى رقص لعوب بخفة وظرف بينما تتماوج معرفته وهو يصهل فى ضجر، لم أر فى زمانى مثل هذا المزيج من القوة والرشاقة والجمال ...

وكثيرا ما تساءلت كيف أفلح الفرسان الإنجليز فى أن يشقوا طريقهم أمام خيالة الحرس الامبراطورى فى واقعة استورجا، ولكن عندما رأيت الجياد الإنجليزية لم يطل تساؤلى ...

وكانت عند باب الخان حلقة تثبت فيها شكائم الخيـــل، فشد السائس إليها الجواد ودخل المنزل. وفى هنيهة واحدة أدركت فى لمح البصر الفرصة التى أتاحها لى القدر؛ فلو أننى على هذا الجواد لأصبحت فى حال أحسن مما كنت عليها عندما بدأت مغامرتى. وإن فلتيجير نفسه لا يمكن أن يقارن بهذا الحيوان الفاره، وسرعان ما تقترن عندى الفكرة بالفعل؛ ففى لحظة واحدة هبطت الدرج، وأصبحت عند باب الحظيرة، وفى اللحظة التالية كنت خارجها وشكيمة الجواد فى يدى، ثم وثبت فوق صهوته، وصيحات الحنق تلاحقنى من السيد أو تابعه، ولم ألق إليهم بالا . . . ثم لمست الجواد بمهمازى فوثب إلى الأمام وثبة لا يثبت معها على ظهره إلا فارس مثلى، فأرخيت له العنان وخليت

---

(١) جمع رسغ وهو الموضع المستدق بين الحافر والساق.

له ... وما كنت لأعبأ بوجهته مادمنا قد تركنا الخان وراءنا بعيداً ، وقد ركض يسابق الريح عبر الكروم ، وفى بضع دقائق أصبحت المسافة بينى وبين المطاردين عدة أميال ، فما عادوا يعلمون وجهتى فى هذا الريف المقفر .
وقد شعرت أننى قد أصبحت آمنا فصعدت فى أكمة صغيرة هناك ، وأخرجت قلمى ومذكرتى، وبدأت أرسم رسوما تخطيطية لهذه المعسكرات التى تلوح أمامى ، وأخرى للضاحية . ومع أنى كنت أمتطى ظهر حيوان غالى القدر ، فلم يكن من الميسور لى أن أرسم وأنا على ظهره . . فقد كانت تنتصب أذناه بين الفينة والفينة ، ويجفل وينتفض فى ضجر وملل ! ولم أستطع أن أفهم فى بادىء الأمر، ولكنى وسرعان مالحظت أنه لم يفعل ذلك إلا عندما كان يطرق سمعه صوت غريب آت من مكان ما بين أحراج البلوط . ثم تحول على حين غرة هـــذا الصياح الغريب إلى صراخ مخيف مصحوب بنفخ أبواق جنونى ، فما عتم أن جن جنون الجواد ؛ فتوهجت عيناه ، ووقف شعر معرفته ، وهو يتوثب . . ثم انثنى والتوى فى حبل ، فطار القلم فى ناحية وطارت مذكرتى فى الناحية الأخرى .
ولما رحت أطل على الوادى شاهدت عيناى منظراً عجيباً ! كان الطراد ينحدر كالسيل ولم أر الثعلب ، ولكن كلاب الصيد كانت فى ذروة الطراد... أنوفها إلى أسفل وأذنابها إلى أعلى ، لصق بعضها البعض حتى لكأنها بساط متحرك من اللون الأبيض والأصفر . . . ومن ورائها يركب الفرسان .

حقاً . . ياله من منظر !! تصوروا كل ألوان الاستعراض التى يستطيع جيش كبير أن يقدمها ؛ فالبعض منهم فى ملابس الصيد ، ولكن

الغالبية فى ملابسهم الرسمية . «الدراجون»[1] الزرق ، والدراجون الحمر ، والهوسار فى سراويلهم الحمراء وحاملو البنادق فى زيهم الأخضر ، ورجال المدفعية ، والرماحة [2] فى ملابسهم الموشاة بالذهب . وقد غلب اللون الأحمر على الجمع لأن ضباط المشاة لم يركضوا فى غبار الخيالة ، بل كانوا لهم أنداداً ، يا لهذا الحشد .. !! البعض منهم يحسن الركوب والبعض لا يحسنه ، ولكن الجمع كله يطير طيراناً ... والكل باذل جهده . . . سواء فى ذلك الملازم والقائد ؛ فهم يتزاحمون ويتدافعون وينخسون جيادهم ، ويدفعونها . . . ولم يشغلهم شاغل سوى اصطياد هذا الثعلب اللعين ، وإنهم لنوع فريد .. هؤلاء الانجليز !!

ولم يكن لدى وقت أرقب فيه هذا الطراد أو لأعجب بسكان الجزر هؤلاء [3] لأن الحصان الذى امتطيه كان وسط هذه المخلوقات المجنونة أشدهم جنوناً .. لقد أدركتم أيها الرفاق أنه هو نفسه كان من جياد الصيد !

وقد كان وقع صيحاتها فى نفسه كوقع نفير الخيالة فى نفسى إذ يطرق مسمعى من مكان بعيد . . لقد كانت هذه الصيحات تهز مشاعره وتدفعه دفعاً جنونياً ، وقد تقافز فى الهواء ثم هبط المنحدر ، وعدا وراء الكلاب حاملا شكيمته بين أسنانه وعبثاً قذفته بالشتائم ، وجذبت وشددت . . فقد أعيانى كبحه .

---

(١) فرسان فى الجيش الانجليزى .
(٢) حاملو الرماح .
(٣) يقصد الانجليز

وقد كان القائد الإنجليزى يسوقه مرخى العنان بغير شكيمة ، وكان مثلى مثل من يحاول أن يمنع زجاجة النبيذ عن جندى من جنود المشاه .. لذلك استسلمت يائساً ، وبعد أن وطدت جلستى فوق سرجه هيأت نفسى لأسوأ ما يكون. .

ياله من جواد عجيب .. ما أحسست عمرى بجواد مثل هذا بين ركبتى ؛ فقد كان كفله الضخم يتجمع تحته فى كل خطوة ، وكان يمرق إلى الأمام متزايد العدو وهو يبسط قوائمه كأنه كلب من كلاب الصيد ، وكانت الريح تضرب وجهى وتصفر فى أذنى .. وكنت ألبس السترة المدنية للضباط وهى زى بسيط معتم اللون ، وقد أخذت الحيطة لنفسى فنزعت قنزعة الريش من قلنسوتى ، ولو أن هناك بعض شارات توضح فروق الرتب بين زى وآخر . وكانت نتيجة ذلك أنه وسط هذا الخليط من الأزياء فى الطراد لم يكن ثمة ما أثير به انتباه أحد أو أن يكترث بى هؤلاء الرجال الذين ركزوا كل همهم فى الصيد ، وكان احتمال وجود ضابط فرنسى فى ركبهم أبعد ما يكون عن أذهانهم ، وقد ضحكت فوق جوادى ؛ ففى وسط هذا الخطر الداهم كان فى الموقف شىء ما يبعث على الضحك . .

وقد قلت لكم إن المطاردين لم يكونوا فى ركضهم على مستوى واحد فبعد بضعة أميال بدلا من أن يكونوا كتلة متراصة كأنها كتيبة مهاجمة ، تفرقوا على مسافات متباعدة وكان أبرعهم فى الركوب على مقربة من كلاب الصيد أما الاخرون فقد كانوا يقتفون الأثر على مبعدة . ولما كنت أحسن الركوب كأى واحد منهم ، وكان حصانى أفضل الجياد جميعها ، فإنه يمكنكم أن تتصوروا أنه حملنى إلى المقدمة بعد وقت لم يطل ..

ولما رأيت الكلاب تنساب فى هذا الخلاء ومن ورائها مدرب كلاب الصيد فى ملابسه الحمراء ، وليس بيننا سوى سبعة أو ثمانية من الخيالة .. حدث لى أعجب الحوادث وأغربها ؛ فإنى أنا أيضاً أصبحت مجنوناً .. أنا إتيين جيرار ! غلبت على فى تلك اللحظة نزعة الطراد ، والرغبة فى التفوق ، وذلك المقت البغيض للثعلب .. ذلك الحيوان الملعون .. أتراه يتحدانا ؟ ذلك اللص الغادر .. لقد حانت منيته ! يالهذا الاحساس النبيل أيها الرفاق ! نزعة الطراد ..هذهالرغبةأن تطأ الثعلب تحت حوافر جوادك (١)

لقد اشتركت فى طراد الثعلب مع الانجليز ، وكذلك — كما سأخبركم يوما ما لاكمت « فتوة » برستول — وإنى أقول لكم إن هذا النوع من الرياضة شىء رائع حافل بالمتعة كما هو حافل بالجنون ..

وكنا كلما بعدنا ازداد الجواد ركضاً ، وبعد فترة وجيزة لم يبق إلا أنا وثلاثة رجال فقط على مقربة من الكلاب ، وقد تلاشت من ذهنى أى بادرة خوف من افتضاح أمرى ، وكان رأسى ينبض ، والدم الحار يجرى فى عروقى ، وقد بدا لى أن هدفا واحداً فى هذا الوجود جدير بأن يحيا الإنسان من أجله .. وذلك الهدف هو اللحاق بذلك الثعلب الجهنمى .. فجاوزت أحد الفرسان ، وكان مثلى من فرقة الهوسار ، ولم ولم يبق أمامى الآن إلا فارسان أحدهما فى سترة ســـوداء والآخر هو

(١) أظنه قد وضح للقارىء أن صاحبنا اتيين جيرار كان يجهــل جهلا مطبقا تقاليد صيد الثعلب ـ هــذه الرياضة المحببــة الى نفوس الانجليز ـ فارتكب كل ألوان الحماقات التى أثارت سخطهم بينما كان يعتقد هو فى قرارة نفسه بأنه فارس الميدان . **(المترجم)**

ضابط المدفعية ذو الرداء الأزرق الذى رأيته فى الخان ، وكان عارضاه الأشهبان ينسابان فى الهواء ، وكان يركب بجلال . وقد حافظنا على هذا النسق مسافة ميل أو أكثر ، وعندما صعدنا منحدراً شـــديد الانحدار ساعدتنى خفة وزنى على أن أكون فى المقدمة . . فجاوزت كلا الرجلين ، ولما وصلت قمة المنحدر كنت فى محاذاة مدرب كلاب الصيد الإنجليزى الصارم الوجه الصغير الجسم ، وكانت الـكلاب أمامنا وإلى مسيرة مائة خطوة منها كومة داكنة . . هى الثعلب بعينه ، وقد انبسط جسمه إلى أقصى حد مستطاع ، ولما رأيته غلت الدماء فى عروقى وضحكت .. آه .. أيها القاتل المغتال ،لقدوقعت فى قبضتنا إذاً ، وصحت فى المدرب مشجعاً ولوحت بيدى لأريه أن هناك من يمكنه أن يركن إليه .

والآن لم يبق بينى وبين فريستى إلا كلاب الصيـــد وتلك التى كان من واجبها أن ترشد أثناء الطراد أصبح تعويقها لنا أكثر من عونها (١) ؛ فقد كان عسـيراً على أن أمرق من بينها ، وكذلك لاقى المدرب مثل مالاقيت من مشقة . . . فقد كان يعدو وراء الـكلاب دون أن يفلح فى اللحاق بالثعلب وكان راكباً سريعاً ولـكن كان يعوزه الإقدام . أما أنا فقد أحسست أننى لن أكون جديراً بالانتساب إلى

---

(١) لقد كان صاحبنا يجهل أن هذه الكلاب هى التى تقوم بالطراد حتى تدرك الثعلب وتقتله والسعيد من المطـاردين من يكون على مقربة منها عندما تتمكن من ذلك ويعبر الانجليز عن ذلك بقولهم :
«to be in at the death»

خيالة « الكونفلانز» إن لم أستطع التغلب على صعوبة كهذه . أيليق بإتيين جيرار أن يعوقه قطيع من كلاب الصيد، ياله من سخف ! وأطلقت صيحة ونخست حصانى ، فصاح مدرب كلاب الصيد : « قف يا سيدى قف » لقد كان هذا الرجل الطيب قلقاً على ، ولكنى طمأنته بإشارة وابتسامة وأفسحت لى الكلاب طريقاً، وقد يكون أحدها أو اثنان منها قد أصيبا[1]. ماذا تحسبون ، لابد دون الشهد من إبر النحل !

وقد كنت اسمع المدرب من ورائى يصيح مهنئا[2] ، وبجهد آخر أصبحت الكلاب ورائى ، ولم يبق أمامى إلا الثعلب .

يالها من لحظة بهجة وفخار ! فقد كان هناك ثلاثمائة رجل ظامئين لإراقة دم هذا الحيوان ، ومع هذا فقد كنت الوحيد الذى أصبح على وشك أن ينال هذا الشرف ، وتذكرت رفاقى من لواء الخيالة الخفيفة . . وأمى . . وإمبراطور فرنسا . . لقد جلبت الفخار لكل منهم ، بل لجميعهم . . ثم دنت ساعة التنفيذ ؛ فسللت حسامي ولوحت به فى الهواء ، والإنجليز الشجعان يهنئون من ورائى .

ولم أدرك صعوبة طراد الثعلب إلا تلك اللحظة ؛ فلقد يطعن الواحد هذا الحيوان مرة بعد أخرى فلا يصيبه مرة واحدة . فإنه

---

(١) ان اصابة كلب من كلاب الصيد فى أثناء الطراد من أحد الصيادين تعتبر وصمة عار .

(٢) هذا فى اعتقاد صاحبنا أما فى حقيقة الأمر فأغلب الظن أنه كان يستنكر ويسخط .

ضئيل الجسم سرعان ما يتحول عن الطعنة ، وفى كل طعنة كنت أسمع تهاليل التشجيع من ورائى وهم يستثيرونى لبذل مجهود آخر ، وأخيراً دنت ساعة الظفر الكبرى . . . فى لحظة تحوله عن طعنتى أخذته بطعنة نجلاء من مؤخر يدى كتلك التى قتلت بها أركان حرب إمبراطور الروسيا ، فطار فى الهواء شطرين . . رأسه فى ناحية وذيله فى الناحية الأخرى . . . فنظرت خلفى ولوحت بالسيف المخضب بالدماء ، وفى تلك اللحظة بلغت أوج الرفعة والفخار[1] ! !

وكم اشتهيت أن أبقى لكى أتقبل التهانى من هؤلاء الخصوم الكرام !

لقد كان خمسون منهم على مرمى البصر منى ، وما من واحد منهم إلا وقد صاح لوحا بيديه : فهؤلاء الإنجليز ليسوا حقا شعبا بليد الإحساس . . . فإن أى عمل ينطوى على نبل وشهامة فى الحرب أو فى ميادين الرياضة يثير دائما حماستهم . أما مدرب كلاب الصيد الكهل فقد كان قريبا منى . . . وقد رأيت بعينى كيف أخذ بمارآه ! لقد كان كمن شلت إرادته : ففغر فاه ورفع يدا فى الهواء مبسوطة الأصابع .

وقد ملكتنى هنيهة من الزمن الرغبة فى أن أعود إليه وأعانقه ، ولكن نداء الواجب كان يدوى فى أذنى . . . وهؤلاء الانجليز بالرغم

---

(١) هذا فى نظره هو أما فى نظر الانجليز فقد جلل نفسه بالخزى والعار .

من الإخاء الذى يوجد بين محبي الرياضـــه لن يتوانوا بلاريب عن أخذى أسيرا ،ولم يبق الآن أمل فى أداء مهمتى ، ولقد فعلت ماقدرت عليه . . وكان فى استطاعتى أن أرى خطوط معسكر ماسينا على مسافة ليست بالبعيدة ، فقد دفعنا الطراد لحسن طالعى فى ذات الاتجاه ، فتحولت عن الثعلب الميت وحييت بسيفى وركضت بعيداً ، ولـكن أولئك الصيادين البواسل لم يكفوا عنى بسهولة : فلقد أخذت الآن مكان الثعلب ، وبدأ الطراد يكتسح السهل بشجاعة وإقدام ، ولم يتبينوا أننى فرنسى إلا لحظة انحرفت إلى المعسكر ، عند ذلك بدأ الجمع كله يتعقبنى ، ولم يتوقفوا حتى أصبحنا على مرمى طلقة من مراكز حراستنا ، فوقفوا زمرا ولم ينصرفوا بل أخذوا يتصايحون ويلوحون إلى بأيديهم . .

كلا ! فلست أظن أن ذلك كان منهم عن عداوة وبغضاء . . بل لعمرى إنى لأحسب أن إعجابا متقداً كان يملأ صدورهم ، وإن رغبتهم الوحيدة كانت هى . . أن يعانقوا ذلك الغريب الذى تصرف بنبل وأصالة . .

—✦—

كيف نجحتُ في عملي

بقـــلم

ستيفن ليكوك

تقلبت فى كثير من الأعمال سنوات عدة .. طالت علىّ حتى ماعدت أعبأ بأن أعاود ذكراها ، ومع ذلك فما أحسنت فيها عملا . نعم ، ما أحسنت فيها عملا . وإنى لأعلم أننى لم أحسن فيها عملا . وقد كان على بهذا مدعاة لإحساسى بالضيق فى بعض الأحايين . وطالما قلت لزوجتى عند عودتى مساء : « اسمعى يادول ، إننى لم أحسن عمـــلا فى حياتى » وتقول : « لا تقل هذا ياعزيزى » جم ... إننى أعلم أنك لم تحسن عملا ، ولـكن لا عليـك ؛ فانك لا ريب موفق يوما ما » ، ثم أرى دمعة تنحدر من عينيها إلى منضدة الزينة ، فاخرج وأجلس فى الفناء الخلفى ، وأشعر بالضيق حقاً . وكثيراً ما فكرت مليا فى سبب فشلى .. فأنا أكاد أكون فى مثل ثقافة الغالبية العظمى من الناس ، ولى من الخبرة ما أبز به الكثيرين منهم ، ولى من فرص النجاح حظ أوفر من بعضهم وقد كان لى من الرغبة والثبات ما يجعلنى جديرا بالنجاح ، وما جنحت نفسى يوما إلى الشراب ، ولا مالت إلى التدخين ، ولا مست كفى يوما ورقة من ورق اللعب ، ولا وطئت قدماى عمرى ميدانا من ميادين السباق . كلا ، ولم أج يوما قاعة من قاعات المراهنات ...

ومع هـــذا فقد عرفت كما يعرف غيرى مواطن الضعف فى نفسى . لقد كنت تنقصنى الحماسة ويعوزنى الأقدام ، كما كنت حقا خلوا من أى جاذبية ، بطىء التجاوب مع أية بيئة من البيئات ، وقد كنت أعلم أن

الجاذبية والنشاط والتجاوب مع البيئة هي سبيل النجاح فى الأعمال فى هذه الأيام . كما أنى فشلت أيضا فى توافه الأمور فما كنت أقوى على جمع أكثر من عمود واحد من الأرقام فى المرة الواحدة وقد كانت لى ذاكرة ضعيفة ، كأنما تنساب الأمور من ثناياها .

ولطالما قلت لزوجتى عند عودتى فى المساء : « دول ، إن ذاكرتى ضعيفة » فتقول لى : « وما هو الشيء الذى غاب عن ذاكرتك ياجم ؟ » فأتأوه وقول لها : « لقد نسيت »

لقد كنت أتبع نظاماً خاطئا فى التغذية ، قطعا على غير علم منى ، فكنت أكثر من شرب القهوة كما كنت مغرما بأكل اللحوم ، فكنت أنعم بكل أكلة دون أن ألقى بالا إلى النسب الصحيحة للمخلوط ، والوحدات الأزوتية ، فلم أكن أدرك فى تلك الأيام أن كل وحدة من المزيج الزلالى يأكلها الإنسان تحتاج إلى كمية محددة من الهيدروجين ، ونسبة ثابتة من بذور اللقاح النباتى .

ولقد كنت أقلب الرأى فى كل ذلك فى صبيحة يوم الاثنين فى فناء المنزل قبل أن أذهب إلى عملى حينما ومض فى ذهنى بغتة سر فشلى ، ليست لى ثقة بنفسى ، هذا هو موطن الداء . لم أستطع أن أحسن عملا ، لأنى لم أكن أثق بنفسى ، ولا أملك زمامى ، فنهضت ودخلت المنزل وسرت إلى المطبخ حيث كانت «دول» تهيء طعام الافطار وقلت لها وأنا أقرع الخوان بقبضة يدى فيترنح تحت ضرباتى : « دول ، لقد عرفت موطن الداء ، وما على إلا أن أثق بنفسى » فقالت دول : « آه ياجم ، إنك تفزعني » فقهقهت ضاحكا ، فلقد كانت هذه أول مرة خلال ست سنوات أسمعها

تقول إننى أفزعتها . . ولذلك سألتها « هل أفزعتك حقاً ؟ . . إن كان ذلك كذلك فأحضرى لى طعاما تتناسب عناصره فى خليط صحى » فقالت : « ألا تأكل من قديد الخنزير . . لقد كدت أفرغ من إعداده ؟ » فقلت لها : « لا يادول ، ألا تعلمين أن قديد الخنزير يحتوى على وحدات من الأزوت لا تقوى معدتى على هضمها وأنا فى مكتبى؟.. إن محاولة امتصاص الأطعمة الأزوتية يادول عملية تثقل على المراكز العصبية ، وتنال منها ... أحضرى لى بعض اللبن الخض ، ونصف مغرفة من الفول المحمص تحميصاً يقوى من خواصه الزلالية » فقالت دول « هل تريد قهوة ؟ » فأجبتها : « لا يادول ولا نقطة واحدة . . . على ببعض النخالة المشوية الممزوجة بالماء الدافىء » .

وانتهيت من فطورى، وذهبت إلى المكتب لأبدأ عملى الجديد ، وأنا على أحسن حال ، وقد أدركت أن نفسى أخذت تتجاوب مع كل شىء وأخذت أردد « جم ددلى .. لسوف توفق فى عملك »

وكان المدير العام أول من لاقيته وهو على وشك الدخول فقال لى : «ذدلى . لقد بكرت فى الحضور عشر دقائق » فقلت له : « ياسيد كتسن إن التبكير أحب إلى ؛ فالموظف الذى يقدر وقت مخدومه أكثر من وقته يرتد إليه عمله هذا غنماً لشخصه » .

وبهذا الاستهلال فتحت درج مكتبى ، وأخذت فى عملى . ولا إخالنى أقبلت يوما على عملى كما فعلت فى هذا الصباح ؛ فقد لاح لى كل شىء ميسوراً . . فالرسائل التى كنت أقدر لإنجازها نصف ساعة أنجزتها فى

دقيقتين، وكل رسالة خططتها أدخلت فيها روح البهجة والمرح ، حتى لو لم أكن على معرفتى بمراسلى . . . وجدت من وقتى فسحة لأكتب له : اضحك تضحك لك الدنيا ، أو ابتسم دائما ، وما شابه ذلك ، ثم قلت فى نفسى « جم ددلى . . . لسوف تنجح »

ولقد ولج السيد كنس مكتبى مرتين أو ثلاثا فى هذا الصباح وقال لى: « إنك لتكد فى عملك ياددلى » فأجبته : « ياسيد كنس . . . إن الموظف الذى لا يدأب على عمله ولا يكد فيه إنما يدلس على نفسه ، ويموه على مخدومه حقيقة مظهره » .

وحوالى الساعة الواحدة جاء السيد كنس إلى مكتبى وقال : ددلى . . أريد أن أتحدث إليك بشىء . . تعال نتناول طعام الغذاء معا ! فقلت : « سمعاً وطاعة ياسيد كنس . . حتى أنهى تذكرة البريد الأخيرة ثم أذهب معك » فقال : « دعك من تذكرة البريد واتركها لشأنها » فقلت : « ياسيد كنس إن نابليون قد اتخذ لنفسه مبدأ . . ألا يبدأ بتذكرة بريد إلا أتمها » ثم أنجزت تذكرة البريد على أتم وجه ، ووقعتها ، وأخذت قبعتى ، وخرجت مع السيد كنس ، ودخلنا نادياً فخما ، وقد كانت هناك قائمة كبيرة للاسعار ؛ وأما اللحم فلم أذق منه شيئا قط ، وأما السبانخ فقد تناولت منه نصف سطل . . وقد لاحظت أن السيد كنس لم يتناول إلا مسلوق جرجير الماء ، وقد قال السير كنس : « والآن يا جم . . . لقد كنت أراقبك طوال هذا الصباح ، وإنى لأعتقد أنك الرجل الذى نحتاج إليه . . . إن الشركة تريد أن تبعث بمن يذهب إلى مدينة كنساس لكى يرغب عميلا ، ويعرض عليه صفقة كبيرة » فقلت مقاطعاً :

« يا سيد كنس إن فى استطاعتى أن أرغبه وأبرم معه الصفقة » قال : « ومتى تستطيع الذهاب ؟ » قلت : « فى التو واللحظة ... عندما أفرغ من تناول السائغ ، وإنما خبرنى بالأمر وبما سأبرمه هناك » فقال : « حسناً إن اسم الرجل الذى عليك أن تلاقيه جون سمث ، وهو يقطن شارع جون ... فهل تستطيع أن تتذكر هذا الإسم ؟ » خير لك أن تدونه » فأجبته : « إنى لا أدون شيئاً ، وإنما كرر الاسم على مسمعى ثلاث مرات أو أربعاً فتستوعبه ذاكرتى ، وأنا أتنفس بعض الأنفاس العميقة فى أثناء ذلك » (١)

وهكذا ذهبت توا إلى منزلى ، وشددت قبضة يدى وقلت : « دول .. إنى راحل إلى مدينة كنساس » فقالت : « ولم ؟ » قلت : « لكى أعرض صفقة ، وإنه لعمل كبير مع قوم كبار ولئن أنجزته لنكون من كبار القوم »

ولقد سافرت بطريق السيارات تلك الليلة ، وكنت لا آكل إلا الخضر ، وأفقه ذاكرتى ، وأتفاعل طول الوقت مع كل شىء أراه ، ولما وصلت إلى مدينة كنساس ، وجدت أننى أواجه أمرا خطيرا ؛ فلقد وجدت جون سميث ، ولكنه رفض أن يرانى فدخلت عليه فى مكتبه ، وقلت : « ياسيد سميث .. هل أستطيع أن أتحدث إليك؟ » فقال : « كلا..

---

(١) واضح أن المؤلف يسخر بأدعياء علم النفس الذين يتجرون بهذه الآراء فى نشرات دورية يضحكون بها على السذج فيطلبون اليهم القيام بهذه التمرينات لتقوية الذاكرة .

إنك لا تستطيع ! ! » ومع ذلك تشبثت قائلا : « اسمح لى بأن أراك » فقال : « كلا .. لا أسمح لك بهذا » ومع ذلك فلم أيأس ، وذهبت إلى داره فى ذلك المســاء ، ودخلت عليه فى حجرة مكتبه وسألته :

« ألا أستطيع أن أراك الآن ؟ » فقال : « كلا .. إنك لا تستطيع أن ترانى » فتوسلت إليه قائلا : « اسمع ياسيد سمث .. لقد قطعت مسافة ألفى ميل لكى أراك » فقال : « لا ياددلى .. لن أدعك ترانى »

واستمرت الحال على ذلك أربعة أيام وأخيرا أذعن قائلا : « حسنا وضح لى غايتك .. ماذا تريد ؟ » قلت : « أريد أن أرغبك فى أمر ، وأعرض عليك صفقة ، تعال معى ياسيد سمث نأكل السبانخ وسأخبرك بالأمر »

وهكذا أخذته معى إلى فندق فخم حيث يصنعون أطيب أنواع السبانخ فى مدينة كنساس ، وقلت له بعد أن أكلنا : « والآن .. إنك لرجل عظيم ، وهذا أمر عظيم ، وإننا نريد أن ننهى أمرا عظيما ولأنت الرجل الذى نريده على رأس هذا العمل ، فأنت رجل عظيم .. »

فأجابنى قائلا : « جم .. إنك تحسن الحديث وفوق ذلك فأنت ذو شخصية قوية ، وهذا أعظم شىء فى ميدان الأعمال فى هذه الأيام .. فما أن أرى صاحب شخصية قوية حتى أكون طوع أمره ، إن الشخصية القوية تأسرنى فى كل وقت !! »

وهكذا نلت ما أريد وركبت القطار عائدا إلى نيويورك ، وقابلتنى دول فى المحطة وقبلتها على الرصيف فسألتنى : «هل أنهيت عقد الصفقة ؟ »

فقلت : « نعم » ورأيتها تذرف دمعه على الرصيف . . وقالت : « جم أيها العزيز الغالى »

وفى اليوم التالى وجدت على مكتبى مظروفا بداخله صك بخمسة آلاف دولار وتلك كانت بدايتى الأولى . . فعندما تبينت الشركة أن فى استطاعتى أن أرغب العملاء وأعرض الصفقات بهذا القدر، كلفتنى بأعمال أخرى كثيرة ، وكان ختام الأمر أن جعلونى رئيسا للشركة ، وقد قال لى السيد كتسن « عبثا نحاول أن نحط من شأنك ياجم . . فأنت أعظمنا جميعاً » وذهبت إلى البيت وقلت لدولى : « لقد أصبحت مديرا للشركة فقالت آه ياجم . . لقد أصبت النجاح . . إنى لفخورة بك وفخورة بالشركة أيضا إذ أصبحت مدير لها . . ولذلك عليك أن تخبرنى بكل شىء عنها ماذا تفعل ؟ وماذا تصنع ؟ وماذا تبيع ؟ »

فأجبتها :

« دول . . لا تسألينى . . لقد كنت فى شغل شاغل بترغيب العملاء وعرض الصفقات وعمل تمرينات التنفس وتناول السبانخ حتى لم يكن لدى متسع من الوت لأعرف ماتفعله هذه الشركة . . .

سباق الثمانين ياردة

بقـــلم

أورين شـــو

مقـــدمة المترجم

وصف لنا المؤلف فى هـذه القصة نوع الحياة المضطربة الصاخبة التى تحياها بعض الأوساط فى المجتمع الأمريكى ، وهى دراسة فنية تلاقت عندها مسالك الحياة هناك ونزوات الجماهير ، وأظهر ما فيهـا أمران : عبادة المـال وعبادة البطولة الرياضية فى الأوساط الجامعية عبادة تطغى على كل ماعدها من قيم أخلاقية ومثل عليا .

والقصة ترسم لنـــا مأساة من مآسى الحياة التى تحدث فى مثل هذه الأوساط . . . مأساة شاب منحته الطبيعة قواما ممشوقا فارعا ، وعضلات مفتولة ووجهـاً مشرقا وسيما ، وقد برز فى ميادين الرياضة حتى صار نجماً لامعاً يشار إليه بالبنان وتهافت عليه الفتيات ، فحسب أنه بلغ الغاية التى ليس وراءها غاية ، وظن أن الدنيا قد دانت لأمره ؛ فاستنام لذلك واكتفى بإعجاب الفتيات به ، وهى تكأة لاغناء فيها ولا مجد !

وأحبته فتاة كان أبوها من سراة القوم وملوك المال ، فتزوجها ونعم بها وبمال أبيها الذى أغدقه عليه . ودارت الأيام وحلت الـكوارث بالوالد فأطاحت بماله ، وأما الزوجة الشابة ، فقد شقت طريقها فى الحياة لطول

ما تمرست من أمور الدنيا بثقافة واطلاع وزيارات متعددة للمكتبات والمعارض الفنية والمسارح ، ثم وجدت لها عملا مشرفا فى إحدى المجلات النسائية . وأما الزوج فقد ضاق ذرعا بزوجته وأخذ يتباعد عنها وعن أصدقائها العديدين ، وصغرت نفسه بالقياس لها لما بلغته من علو شأن وارتفاع منزلة وقدرة على الكفاح ، وبدأ يضطرب فى توافه أعمال لاتسمن ولاتغنى من جوع ، ثم أخذ يدمن الشراب ، وران عليه القنوط والأسى .

وهكذا انهارت آماله العريضة وأحلام شبابه ، لأنها لم ترتكز على علم أو خبرة أو تمرس بالحياة . بل ارتكزت على مجد رياضى سابق تدول دولته ويعفو أثره ، كما ينطوى الشباب وكما تدول الأيام .

« فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض »

سباق الثمانين ياردة

مرت الكرة فى توزيعة من توزيعاتها عالية بعيدة عنه فقفز لينالها وشعر بها تلطم يديه لطمة أفقية عندما انتفض ليرمى عنه الظهير الأوسط الذى كان منفضاً عليه . . ومرق بجانبه قلب الدفاع الذى لم يتمكن مع استماتته إلا أن يمس ركبة دارلنج مساً خفيفاً بينما انتزع هذا قدميه بوثبة عالية ووطىء بلباقة وخفة لاعباً معترضاً كان قد وقع على الأرض مشتبكا مع أحد الملاحظين قرب مركز اشتباك اللاعبين وكان أمامه بعد ذلك عشر ياردات خالصة له فازدادت سرعته وهو يتنفس فى سهولة ويسر ويحس بالوسائد المشدودة على فخذيه تعلو وتهبط وتضرب ساقيه ويستمع إلى صوت وقع المسامير فى نعال اللاعبين من خلفه . وانطلق وهو يلاحظ بقية الظهراء وهم يسبقونه إلى ناحيةالخط الجانبى . . وكانت الصورة كلها ، بما فيها من رجال يطبقون عليه ومعترضين يناضلون عن مراكزهم ، والمسافة التى كان عليه أن يعبرها ، كل ذلكقد بدا بغتة واضحاً جلياً فى ذهنه لأول مرة فى حياته ولم يعدخليطاً لامعنى له من رجال وضجيج وعدو، فابتسم لنفسه ابتسامة خفيفة وهو يعدو حاملا الكرة

أمامه بخفة بكلتا يديه ، وركبتاه تتدافعان فى الهواء دراكا ، وردفاه يلتويان فى جريه الذى يشبه عدو الفتيات ، عدو الظهير يعدو فى ملعب فتحت فيه ثغرة يستطيع أن ينفذ منها . ويمم نحوه الظهير الخلفى الأول فبادره بأن مد له ساقه ثم انفتل من أمامه فى اللحظة الأخيرة وضربه لاعب آخر بكتفه فاحتمل الضرب ولم يحد عن طريقه بل اكتسحه أمامه ومسامير نعليه تنشب فى الأرض المعشوشبة بثبات تام . ولم يبق أمامه الآن من خصوم سوى الحارس الاحتياطى الذى هجم عليه فى حذر وعناية وقد تقوست ذراعاه وامتدت يداه غير أن دارلنج تشبث بالكرة بشدة وانقض عليه وهو يندفع اندفاع السيل وينحدر بكل وزنه البالغ مائتى رطل فى هجوم بارع حاذق وهو واثق تمام الثقة أنه سيفلت منه ويتجاوزه . وكانت يداه ورجلاه تعمل كلها معاً فى انسجام بديع وهو ينقض على الحارس الاحتياطى فيشل حركته وقد أحس بالدم ينبجس من أنف الرجل فى يده ، وقد مال برأسه والتوى عنقه وتقلص فمه إلى ناحية ، أما هو فقد استدار يشق طريقه وذراعه مضمومة على الكرة تاركا الحارس يسقط أرضاً وهو يعدو فى سهولة إلى خط المرمى وقد غابت وتضاءلت من خلفه أصوات المسامير البارزة فى نعال اللاعبين . . . .

كم مضى على ذلك ؟

لقد كان الوقت خريفا ، وقد جف أديم الأرض من برد الليل والريح تذور فى هباتها ورق أشجار الأسفندان المحيطة بالملعب فتتساقط

فوق مضمار التمرين ، وقد بدأت الفتيات تلبسن سترة لعبة (البولو) فوق الصدار عندما يجئن بعد الظهر لحضور التمرينات .

كان هذا منذ خمسة عشر عاما . . .

وراح (دارلنج) يمشى مستمهلا فوق نفس الأرض فى شفق الربيع وهو ينتعل حذاء أنيقاً ، وقد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره وهو يلبس بذلة ذات صدار مزدوج وقد زاد وزنه فى هذه الخمسة عشر عاما عشرة أرطال ولكنها لم تكن شحماً ، وقد ترك مر السنون من عام ١٩٢٥ إلى عام ١٩٤٠ أثره على وجهه .

وكان المدرب يبتسم لنفسه فى هدوء وراح مساعدوه يتبادلون أيضاً نظرات السرور والرضى وذلك شأنهم كلما أجاد أوأبدع أحد أفرادالفريق الثانى على غير انتظار مما يكسبهم الحظوة وحسن السمعة ويزيدهم - ولو قليلا جداً - من الضمان والاطمئنان إلى قبض مكافآتهم وهى مبلغ ٢٠٠٠ ريال فى العام . أما دارلنج فقد أخذ يعدو الهوينى راجعاً وهو يبتسم ويتنفس تنفساً عميقاً ولكن فى سهولة وهو يحس بأنه فى أحسن حال ولا يشعر بالتعب رغم أنه كان فى آخر التمرين وقد ركض ثمانين ياردة وتفصد من وجهه العرق وبلل صداره الصوفى ، وقد لذ له الشعور بذلك ، والعرق الحار يلين بشرته كأنه الزيت . . .

وكان فى ركن الملعب بعض اللاعبين يتمرنون بالكرة فكان صوت ارتطام الأحذية بالكرة لذيذ الوقع عنده فى نسيم المساء ، والمبتدئون يقطعون

المسافات المحددة لهم عدواً فى الملعب المجاور وصوت الظهير الرابع [1] ودقدقة أحد عشر زوجا من النعال المدعمة بالنتوءات ، وهتاف المدربين (اضرب رجلك .. اضرب رجلك فى الأرض) ، وضحكات اللاعبين . كل هذه الأصوات مجتمعة أشاعت فى نفسه شعوراً بالسعادة وهو يعدو الهوينى عائداً إلى قلب الملعب ، مصغياً إلى صيحات الاستحسان والتشجيع وهتافات الطلبة على طول الخطوط الجانبية للملعب ، وهو يعلم أن المدرب بعد هذا الشوط سيضعه فى مباراة يوم السبت أمام فريق (ايلينوا) .

وتذكر دارلنج كيف كان منذ خمسة عشر عاما يستحم بالدش الساخن بعد اللعب والماء الحار الممتزج بالصابون يتبخر عن جلده والشبان يغنون والمياه تنحدر والمناشف آتية ذاهبة والمديرون يسرعون رائحين غادين ، وتذكر الرائحة الحادة الجميلة رائحة زيت المروخ (وهو الونترجرين) ، وكل من مر به يضربه على ظهره مداعباً وهو يرتدى ثيابه . وتذكر (باكارد) رئيس الفريق الذى كان يعتز برئاسته ويهتم به أعظم اهتمام ، وقد جاء إليه وصافحه قائلا :

— « اسمع يا دارلنج انك ستصل إلى أعظم مراكز هذا الفريق فى السنتين القادمتين » .

وجاء مساعد المدير وهو قلق من أجله وأخذ يغسل جرحا فى ساقه

---

(١) هذه الالعاب غير كرة القدم المعروفة عندنا .

بالكحول واليود ، وجعلته لذعتها الخفيفة يشعر لجأة بما فى جسمه من النشاط والصحة والصلابة . أما المدير فألصق فوق جرحه شريطاً ، وقد لاحظ دارلنج الفرق بين بياض الشريط الناصع وحمرة جلده الخارج لتوه من الحمام الساخن

وارتدى ثيابه فى بطء وكانت نعومة قميصة ودفء جواربه الصوفية وسرواله المصنوع من الفانلا (البنطلون) راحة وروحا لجلده بعد ثقل وخشونة العدة التى يلبسها على عاتقه والوسادات الواقية التى يشدها إلى فخذيه ومتنه فى أثناء اللعب . وشرب ثلاثة أكواب من الماء البارد فرطبت جوفه وحلقه الملتهب من العرق والعدو والصياح أثناء التمرين واللعب .

كان ذلك منذ خمسة عشر عاما ..

ومالت الشمس للمغيب وصار الجو داكناً وراء الإستاد (الملعب) فأخذ يضحك بينه وبين نفسه وهو يتطاول لينظر من فوق الشجيرات . وهو يعلم أنه فى يوم السبت حين يضج سبعون ألف صوت لتحية الفريق عند دخوله الملعب ، سيكون جزء من هذه التحية موجهاً له هو . . فسار متمهلا يسمع فى رضى إلى جرس الحصى تحت قدميه فى هدوء ساعة الشفق شاعراً بثيابه ترف فتمس جسده مساً رفيقاً ، ويستنشق نسيم المساء الرقيق ، ويشعر برقته أكثر ما يشعر فى شعره المبلل ، وقد ابترد منه قفاه وما خلف أذنيه ابتراداً عجيباً . وكانت خطيبته لويز تنتظره فى الطريق

فقد أنزلت الظلة (١) فأصبحت السيارة مكشوفة، وقد لاحظ — كما يلاحظ دائماً عندما يراها — جمالها الفتان وشعرها الأشقر الخشن، وعينيها الواسعتين المتسائلتين، وثغرها المتألق. وقد ابتسمت له. وفتحت له باب السيارة وهى تسأل: هل أبدعت اليوم ؟

قال: «نعم، قد أحسنت غاية الإحسان»، وصعد إلى السيارة وغاص فى المقعد الجلدى الناعم الفاخر ومدّ ساقيه إلى آخرهما ثم ابتسم وقد تذكر الثمانين باردة وقال: نعم حسن جداً! فنظرت إليه هنيهة نظرة جدية ثم زحفت إليه كما تفعل الطفلة الصغيرة وركعت على المقعد المجاور له وأمسكت بوجهه وقبلته وهو مستلق فى جلسته وقد ألقى برأسه إلى الوراء على مسند المقعد، ثم انثنت عنه ولكن بقى رأسها قريباً من رأسه. أما هو هو فمد يده ببطء وربت خدها بظاهر كفه وكان يقع على خدها ضوء خافت من صباح الطريق على مبعدة نحو مائة قدم منها. وتبادلا النظر والابتسام ثم قادت السيارة إلى البحيرة وجلسا صامتين يراعيان ارتفاع القمر من الناحية الأخرى وراء التلال، وأخيراً مد يده إليها فاجتذبها إليه فى رفق وقبلها.

وترقرقت الدموع فى عينيها، وعلم لأول مرة أنها لا تعصى له أمراً فقال:

---

(١) الظلة ما يظلل السيارة أى الكبود.

سأزورك الليلة الساعة السابعة والنصف فهل تخرجين معى ؟

فنظرت إليه وهى تبتسم والدموع فى عينيها وقالت : « حسناً سأخرج معك . . ولكن من جهتك أنت ماذا سيكون من أمرك ؟ أترى المدرب سيقيم الدنيا ويقعدها لغيابك ؟

فابتسم دارلنج وقال : « إن المدرب ألعوبة فى يدى . . وهل فى وسعك الانتظار إلى الساعة السابعة والنصف » .

فجاوبت ابتسامته بمثلها وقالت : « كلا ! » فتبادلا القبل وقادت السيارة إلى المدينة ليتناولا عشاءهما ، وأخذ يغنى وهو فى طريق العودة إلى منزله .

◆ ◆ ◆

وجلس كريستيان دارلنج . . وهو الآن فى الخامسة والثلاثين من عمره على عشب الربيع الغض وقد لاح له أن هذا العشب بلغ من الخضرة والغضاضة ما لن يبلغه أبداً فى المستقبل على أرض هذا الملعب . وراح ينظر فى تفكير إلى الملعب وقد بدا فى الشفق قفراً مهجوراً . لقد بدأ يلعب فى الفريق الأول منذ يوم السبت ، وسيلعب كل يوم سبت بعد ذلك لمدة سنتين ولكنه لم يكن راضياً تمام الرضى فانه لم يوفق مرة

فى الإفلات والعدو مسافة طويلة . وأطول مسافة أغتنمها فى حياته فى اللعب كانت خمسا وثلاثين ياردة . ومع ذلك كان هذا فى مباراة قد رجحت فيها كفتهم من قبل . ثم جاء ذلك الفنى ديدريخ من الفريق الثالث وهو فتى ألمانى له وجه خال من أى تعبير أو فهم . من مدينـــة ويسكونسن ويجرى مثل الثور الفحل فيمزق الصفوف تمزيقا فى كل سبت أسبوعا بعد أسبوع . وهو فى عدوه كأنما يحرث الملعب حرثا ولم يصب يوما بأقل أذى ولا تغيرت ملامح وجهه . ولا يزال يسجل النقط ويفوز أكثر مما يفوز بقية أفراد الفريق مجتمعين كأنه يبدع بالنيابة عن كل فرد منهم . ويفوز بالكرة ثلاث مرات من أربع . ويترك الجميع بعيدين عن الخطوط الأمامية . وكان دارلنج « معترضا » متينا ويمضى بعد الظهر فى أيام السبت فى اللعب بين اللاعبين الكبيرين (سويدز وبولاكز الذين يحتلان مركزى «الحامى[1]» و «اللاعب الأخير» فى فريق متشيجان وايلينو وبرديو . فكان يقذف بنفسه فى تجمعات الهجوم المروعة ورأسه يتراوح علوا وسفلا فى عنف ووحشية ليراوغ الأيدى الهائلة

---

(١) الحامى فى لعبة كرة القدم الامريكية ، هو لاعب مركزه بين الحارس وبين اللاعب الاخير (والحاميان اثنان على جانبى الخط) ومهمته أن يوقف الخصم حامل الكرة ويشل تقدمه أما اللاعب الاخير فهو آخر لاعب أمام الحارس وهو يشبه الظهير المعروف عندنا مع بعض الاختلاف

التى تنتفض وتتحرك حوله فى فوضى وتمتد إليه كأنها مدى الجزارين كلما حمل حملة ليفتح ثغرة أمام ديدريخ الذى يقتحم اللاعبين من ورائه ويشق طريقه كأنه قاطرة بخارية .

*

إذن لم تكن حالة دارلنج سيئة إلى الدرجة التى يعتقدها . . فكل الناس يحبونه ويقوم كذلك بما يطلب منه على أتم وجه ، وهو مبرز فى ملاعب الجامعة يشار إليه ويفخر الشبان بأن يعرفوا صديقاتهم به حينما يلتفون به فى نزهة أو حفلة . وكذلك كانت خطيبته لويز تحبه وتراقبه بكل دقة فى أثناء اللعب حتى عندما يتلطخ بالأوحال فلا تعرفه أمه نفسها ، وتأخذه فى سيارتها إلى كل مكان . وقد أنزلت سقف السيارة ليراهما الناس وتفخر أمامهم بأنها خطيبة كريستيان دارلنج . وكانت تشترى له هدايا مذهلة — فوالدها رجل مثر — كانت تهديه الساعات والغلايين والأوعية التى تحفظ الطعام ، وأهدته ثلاجة لحفظ البيرة المثلجة ، وستائر ومحافظ ومعجما ثمنه خمسون دولاراً . وقد احتج دارلنج عليها مرة حينما دخلت مسكنه وهى تحمل سبع لفافات مختلفة ألقت بها على المقعد فقال لها :

— إنك تنفقين كل مليم يمتلكه والدك العجوز .

فقالت :

— قبلنى ودعك من هذا ولا تزد .

— هل تريدين إفلاس والدك العجوز المسكين ؟

— لا ابالى فكل ما أريده أن اشترى لك هدايا !!

— لماذا ؟

— لأن ذلك يلذ لى وأحس له براحة لا أعلم لها سبباً ، والآن قبلنى ... أتعلم أنك شخصية بارزة ؟

فقال باهتمام :

— نعم .

— سمعت أمس حينما كنت أنتظرك فى المكتبة فتاتين تقول إحداهما للأخرى حينما رأتك مقبلا « هذا هو كريستيان دارلنج . إنه شخصية بارزة .

فقال دار لنج :

— أنت تكذبين على

— بل أنا أحب شخصية بارزة

— ولماذا بحق الشيطان تشترين لى معجما بأربعين جنيها !

— أردت أن أكون على يقين بأن عندك دليلا على تقديرى إياك . أردت أن أغمرك بهداياى وأغرقك بعلائم تقديرى .

كان ذلك منذ خمسة عشر عاما ، وقد تزوجا عند تخرجهما فى الجامعة وكان قد عرف فى حياته غيرها من النساء ولكنها كانت أموراً عارضة من باب الغرور والفضول ، منهن نساء يلقين أنفسهن عليه ويتملقنه ؛ فمنهن أم جميلة فى معسكر صيفى للأولاد ، وفتاة هى صديقة الطفولة من مسقط رأسه ازدهرت وأينعت بسرعة وأصبحت غانية حسناء ، كما تعرف على صديقة من صديقات لوبز لزمته فى إصرار وعناد ستة شهور كاملة

وانتهزت كذلك فرصة غياب لويز أسبوعين لوفاة والدتها ، ولعل لويز علمت بالأمر ولكنها لزمت الصمت وأضفت عليه حنانا وحباً وأغدقت عليه الهدايا وراحت تراقبه بكل إخلاص ومثابرة وهو يقاتل فى الملعب مع اللاعبين الكبيرين (سويدز وپولاك) عند خط الاشتباك ، بعد ظهر أيام السبت وتدبر الخطط والمشروعات للمعيشة معه فى نيويورك ، وأن ترتاد معه النوادى الليلية والمسارح والمطاعم الفاخرة ، وهى تفخر به مقدما ... فهو شاب فارع الطول أبيض الأسنان بشوش باسم رشيق الحركة على ضخامته رشاقة الرجل الرياضى البديع الشكل، وهو إذا لبس ملابس السهرة راحت عيون شهيرات النساء فى ثيابهن الفاخرة ترمقه بنظرات الإعجاب فى دهاليز المسرح ولويز المحبة الوالهة تسير إلى جانبه . أما والدها وهو صاحب مصانع لعمل الحبر فقد أقام فى نيويورك إدارة يتولاها دارلنج ونفحة ثلاثمائة جنيهاً حسا أجارياً ، وعاشا معاً فى مسكن على النهر فى (بيكمان بليس) بخمس ألف دولار فى السنة مناصفة بينهما . ففى تلك الأيام كان كل إنسان يشترى كل شىء بما فى ذلك الحبر .

وكان دارلنج وزوجته يزوران جميع المعاوض ومحلات بيع الخمور السرية[1] وينفقان الخمس عشرة ألف دولار فى السنة، وكانت لويز تزور بعد الظهر معارض الفن وتحضر الحفلات النهارية للروايات الجدية التى لايحبها دارلنج . وكان دارلنج يلعب كرة السكواش ثلاث مرات فى الأسبوع وبقى محتفظاً بقوته وصلابته كأنه الصخر ، ولم تكن هى ترفع

---

(١) كان بيع الخمر محرما فى أمريكا وقتها .

عينيها عنه إذا كانا فى غرفة واحدة؛ فهى تراقبه وتبتسم سراً ابتسامة البخيل الحريص على ماعنده ومن ألاعيبها أن تسير إليه فى غرفة الزدحمة بالناس وتقول له بصوت خافت فى جد ورزانة :

ــ إنك أجمل رجل رأيته فى حياتى كلها .. هل أرسل إليك شرابا ؟ .

وحلت كارثة على دارلنج وزوجته وأبيها صانع المداد سنة ١٩٢٩[١] كما حلت على الناس جميعاً . فصبر الوالد إلى عام ١٩٣٣ ونثر رأسه بالرصاص منتحراً . وحينما ذهب دارلنج إلى شيكاغو ليستطلع حقيقة حسابات المصانع ودفاترها وجد أنه لم يبق سوى الديون وبضع جالونات من الحبر لم تبع بعد ..

وقالت له زوجته لويز وهما جالسان فى مسكنهما الأنيق المطل على النهر فى (بيكمان) وعلى الجدران لوحات فنية بريشة ديوفى وبراك وبيكاسو .

ــ « بالله عليك لماذا تريد أن تبدأ معاقرة الخمر فى الساعة الثانية بعد الظهر ؟

فقال وهو يضع على المائدة كأسه الرابعة فارغة :

---

(١) هى سنة كساد عام حدثت فى الولايات المتحدة

— ليس لدى ما أفعله سوى ذلك .. أرجو أن تناوليني زجاجة الويسكي .

فملأت لويز له الكأس قائلة :

— تعال نتمشى معاً على شاطىء النهر .

فقال دارلنج وهو يحملق إلى تصاوير ديوفى وبراك وبيكاسو :

— لا أريد أن أمشي على النهر .

— إذن نتمشى فى الشارع الخامس .

— لا أريد أن أمشى فى الشارع الخامس

فقالت لويز برقة :

— لعلك تحب أن نذهب معاً إلى بعض معارض الفن ، إن رجلا يسمى (كلى) قد أقام معرضاً . .

— لا أريد أن أذهب إلى أى معرض .. أريد أن أجلس هنا وأشرب الويسكى الاسكتلندى ، وبحق جهنم من علق هذه الصور اللعينة فى الجدار ؟

— أنا علقتها . .

— إنى لأمقتها . .

— سأنزلها

— اتركيها كما هى ، فعلى الأقل تتيح لى عملا أعمله بعد الظهر إذ أسخط عليها وأصب لواعج المقت .

ثم أحتسى جرعة كبيرة وقال :

ـ أهذه هى الطريقة التى يرسمون بها هذه الأيام ؟

ـ نعم ياكريستيان .. أرجو أن تكف عن الشرب .

ـ هل تحبين مثل هذه الرسوم [1] ؟

ـ نعم ياعزيزى ..

ـ أتقولين حقاً ؟

ـ نعم حقاً ..

فأعاد النظر إلى الصور كرة أخرى وأنعمه قائلا :

ـ هذه صورة لويز تاكر الصغيرة، وهذه صورة حسناء ولايات الغرب الأوسط . ولكنى أحب الصور التى فيها خيول فلماذا تحبين أنت مثل هذه الصور ؟ .

ـ لأنه تصادف أننى ذهبت إلى معارض الصور المختلفة فى السنين الأخيرة ..

ـ وهل هذا كل ما تفعلينه فى المساء ؟

قالت : نعم هذا ما أفعل فى المساء .

---

(١) يقصد بها رسوم الفن الحديث .

قال :

ـــ أما أنا فأعاقر الخمر فى المساء .

فقبلت رأسه قبلة خفيفة وهو جالس يحملق فى الصور المعلقة على الجدار وقد شدد قبضته على كأس الخمر . .

فارتدت سترتها وخرجت بغير أن تزيد كلمة أخرى ، ولما عادت مبكرة عند العشاء كانت وجدت لنفسها عملا فى مجلة أزياء نسائية . و نقلا مسكنهما إلى المدينة نفسها ، وصارت لويز تخرج إلى عملها صباح كل يوم بينما يمكث دارلنج فى المنزل يحتسى الخمر ، وتدفع هى كل قوائم الحساب . وكان المعتقد أنها ستترك العمل حينما يجد دارلنج عملا له ومع ذلك كان يتسع عملها وتزداد مسئولياتها فى المجلة يوما بعد يوم من مقابلة المؤلفين إلى انتخاب رسامين وفنانين للرسوم وللغلاف وممثلات لتصويرهن فى المواقف المطلوبة ، وكانت تخرج لتجالس من يطلب منها مجالستهم وتتعرف بألوف من الأصدقاء الذين كانت تعرف زوجها بهم بكل إخلاص .

وقال لها دارلنج مرة عند عودتها فى المساء وقد مالت عليه لتقبله ورائحة خمر (المارتينى) تنبعث مع أنفاسها :

ـــ إننى لا أحب منظر قبعتك هذه . .

فقالت وهى تتخلل شعره بأصابعها :

ـــ ماذا فى قبعتى يا طفلى العزيز ؟ إن الجميع يقولون إنها أنيقة جداً .

ـــ لعنة الله على هذه الأناقة الزائدة على الحد .. إنها لا تصلح لك . . إنها تناسب امرأة غنية متبرجة تكون فى الخامسة والثلاثين من عمرها ولها عشاق ومعجبون .

فضحكت لويز وقالت :

ـــ إننى أتدرب الآن على أن أكون امرأة غنية متبرجة فى الخامسة والثلاثين ولها عشاق ومعجبون

فراح يطيل إليها النظر فى اتزان ورزانة ، فقالت :

ـــ والآن يا طفلى العزيز لا تكتئب هذا الاكتئاب فما زال تحت هذه القبعة نفس الزوجة البسيطة الصغيرة .

وخلعت قبعتها فرمت بها ناحية وجلست إليه قائلة :

ـــ أرأيت ؟ أيها السيد الملازم للمنزل ...

فقال لها :

ـــ إن الأبخرة المتصاعدة من فمك تسير قطاراً

ولم يكن يقصد أن يعاملها بدناءة وبذاءة وإنما دفعه إلى ذلك السأم والدهشة المباغتة من منظرها وقد بدت كأنها غريبة عنه فى هذه القبعة الجديدة .

وبدت عيناها تحت حافتها الصغيرة وفيهما تعبير جديد ، غامض تبدو فيه المعرفة والثقة بالنفس ، وأحنت رأسها إلى مستوى ما تحت ذقنه كى لا يشم رائحة أنفاسها وقالت :

ـ كان على أن أخرج مع أحد المؤلفين إلى بعض الحفلات التى يقدم فيها الخمر وهو غلام شيوعى من أوزارك لايرتوى من الخمر

ـ وماذا بحق جهنم يفعل شيوعى من (أوزارك) فى تحرير مجلة للأزياء النسائية ؟

فضحكت لويز فى صمت ثم قالت :

ـ لقد أصبحت أغراض المجلة فى هذه الأيام أغراضاً مختلفة ، ويريد الناشرون أن يدسوا أنوفهم فى كل شىء وعلى أى حال لا يمكن أن تجد الآن مؤلفاً غير شيوعى عمره أقل من سبعين سنة .

فقال دارلنج :

ـ لا أظن أننى أحب اختلاطك بكل هؤلاء الناس ومعاقرتك الخمر معهم

ـ إنه شاب طيب رقيق وهو يقرأ إرنست داوسن .

ـ ومن هو إرنست داوسن هذا ؟

فوقفت لويز وأخذت تصلح من شعرها وقد ربتت على ذراعه قائلة:

ـ أنه شاعر انجليزى

وشعر دارلنج أنه قد خيب ظنها فيه بطريقة ما ، فقال :

ـ هل المفروض أننى أعرف من هو إرنست داوسن ؟

ـ ، كلا ياعزيزى . . وإنى أستحسن أن أدجل الآن وأستحم

ومضى دارلنج بعد ذهابها إلى الركن الذى ألقت به القبعة وتناولها فوجدها لا شيء سوى قطعة من القش ووردة حمراء وحجاب . . أشياء لامعنى لها وهى فى يده الضخمة ، ولكنها على رأس زوجته ذات دلالة معينة ؛ فهى تختلط فى هذه المدينة الكبيرة بنساء يشربن الخمر ويتعشين مع رجال غير أزواجهن ويتحدثن فى أمور لايكاد الرجل العادى يعرف عنها شيئاً ، وهؤلاء الرسامون الفرنسيون كأن الواحد منهم يرسم بكوعه وليس بالفرشاة ، والملحنون الذين يؤلفون سيمفونيات كاملة ليس فيها أى نغم شجى، وكتاب يعرفون كل شيء عن السياسة، ونساء يعرفن كل شيء عن الكتاب وعن حركة العمال الكادحين وعن كارل ماركس ، هذا مختلط بطريقة ما بمطاعم العشاء حيث الوجبة بخمسة دولارات ، وأجمل نساء أمريكا والغانيات الساحرات اللواتى يثرن الضحك والعبارات الناقصة المقتضبة التى تدرك معانيها للفور وتثير انشراحا وطربا ، والزوجات اللواتى ينادين أزواجهن بقولهن « ياطفلى العزيز» . . .

ورمى بالقبعة ، هذه القطعة من القش والوردة الحمراء والقناع الصغير وجرع شيئا من الخمر صرفا وذهب إلى الحمام حيث كانت زوجته غارقة فى الحوض العميق وهى تغنى لنفسها وتبتسم من آن لآن كأنها طفلة صغيرة وهى تعبث بيديها بوداعة ورقة بالماء فتنتشر منه رائحة عطرة تشبه رائحة البهار وهى رائحة الأملاح العطرية التى تضعها فى الحمام .

فوقف إلى جانبها وقد خفض إليها بصره ، ورفعت هى بصرها إليه وهى تبتسم وعيناها مغمضتان قليلا وقداحمر جسدها وتألق فى الماء الدافىء

المعطر ، ففاجأه فى تلك اللحظة نفس الشعور العميق الذى كان يباغته فيما مضى إذ يشعر بفتنة جمالها وعظم حاجته إليها . . . فقال لها :

— لقد جئت أقول لك إننى لاأريد أن تدعينى ياطفلى العزيز

فرفعت إليه بصرها وقد بان فى عينيها الأسف وهى لم تكد تفهم مايرمى إليه .

فركع وجعل يديه حولها ولم يعبأ بالبلل الذى أصاب أكمامه وقميصه وسترته وضمها إليه بغير أن ينبس ضماً عنيفاً مشتطاً كاد يكتم أنفاسها ثم قبلها فى قنوط وحيرة وأسى .

ولقد وفق إلى عمل فيما بعد فى بيع العقارات والسيارات ولكنه — لسبب ما — لم يوفق لبيع أى شىء ولم يكسب أى نقود مع أن له مكتباً كتب عليه اسمه وبرغم أنه يواظب مواظبة تامة على الذهاب إلى الإدارة فى الساعة التاسعة صباح كل يوم . أما لويز فقد صارت مساعدة لرئيس التحرير وصار المنزل يمتلىء كل يوم بنساء ورجال أغراب يتحدثون بسرعة ويتغاضبون من أجل مسائل معنوية وأدبية كالرسم على الجدران ومؤلفى الروايات واتحادات العمال ، فكان يأتى إلى المنزل ويحتسى ماتقدمه لويز من كؤوس الشراب زنوج من مؤلفى القصص القصيرة وكثير من اليهود ورجال ضخام أصحاب رزانة فى وجوههم كثير من آثار الجروح وفى أيديهم خشونة وعقد ، يتكلمون ببطء ووضوح عن خطوط الحرس الأمامية والحرب بالبنادق والأنابيب الرصاصية على رأس مداخل المناجم وأمام بوابات المصانع .

ولويز تنتقل بينهم جميعاً فى ثقة وهى تعرف كل مايتحدثون عنه وتبدى من الآراء مايصيخون إليه ويتناقشون فيه كأنها رجل من الرجال . كانت تعرف كل إنسان ، ولكنها لا تتلطف مع إنسان منهم وتطالع بشغف كتباً لم يسمع عنها دارلنج فى حياته وتجوب شوارع المدينة فى يسر وسهولة وهى متنبهة الأعصاب . وفى البيت تتحدث حتى تنقع غلتها من ملايين الأحداث التى تجرى فى نيويورك بلا وجل ، وبرغبة فى الاستطلاع لاتهدأ . وكان أصدقاؤها يحبون دارلنج وكان يصادف أحياناً رجلا يرغب فى أن ينفرد به فى ركن ويتحدث إليه عن الفتى الذى يلعب فى مركز الظهير فى فرقة جامعة برنستون وفشـــل الجناحين الخلفيين وتأخرهما بل أحياناً يتحدثان فى حالة سوق البضاعة الحاضرة . غير أن دارلنج كان فى أغلب الأحيـان لا يتوغل فى الحديث والبحث بل يجلس هادئاً جامداً أمام عواصف المناقشات وتدفق سيل الحديث فى مثل هذه الموضوعات : « الدراسة المنطقية فى بحث الموقف الحاضر . . . المسرح أصبح فى يدى الخبراء الحذاق من المحتالين والمشعوذين ... بيكاسو ؟ وهل يحق لأى رسام أن يرسم صوراً قبيحة يتقاضى فيها عشرة آلاف دولار.. ؟ أننى أؤيد تروتسكى تأييداً تاماً . . . لم يأت بعد إدجار ألن بو ناقد أمريكى . . فبموته شيعت جنازة النقد فى أمريكا ولا أقول هذا لأنهم نبذوا كتابى الأخير ولكن . . . »

وقد لحظ لويز مرة تطيل النظر إليه فى رزانة وتفكير من خلال دخان اللفافة وفى تلك الضجة القائمة فتجنب النظر فى عينيها والتمس سبباً للقيام فسار إلى المطبخ طالباً للمزيد من المطبخ أوليفتح زجاجة أخرى .

وكان (كاثال فلاهرتى) يقف عند الباب مع فتاة فقال يخاطبها :

ـ « عليك أن تذهبي إلى هناك وتشاهديها [1] إنها فى آخر الشارع الرابع عشر فى مسرح (سيفيك) القـــديم ولا تستطيعين أن تشاهديها إلا فى ليالى الأحد وأنا أضمن لك أن تخرجى من المسرح وأنت تغنين .

وكان فلاهرتى شابا أيرلنديا حديث السن ضخم الجثة مكسور الأنف يعمل محامياً فى اتحاد شحن وتفريغ المراكب ، وكان يتردد على المنزل منذ نحو ستة شهور ويصخب ويضج حينما يتناقش ويصد كل من يريد الاشتراك معه فى المناقشة .

ـ إنها رواية جديدة « فى انتظار لفتى » وهى خاصة بسائقى سيارات الأجرة (التاكسى) .

فقالت الفتاة التى تقف مع فلاهرتى :

ـ إن مؤلف هذه الرواية شاب يسمى أوديتز

فقال دارلنج :

ـ لم أسمع به عمرى .

فقالت الفتاة : إنه حديث العهد .

فقال فلاهرتى :

---

(١) يقصد احدى التمثيليات

ــ إن مشاهدتها تشبه مشاهدة إغارة بالقنابل فقد رأيتها ليلة الأحد الماضي . . ينبغي ألا تفوتكم .

فقالت لويز لدارلنج وفي عينيها شغف وتشوق :

ــ تعال بنا يا طفلي العزيز نذهب إلى هناك فنحن نمضي الأيام في صحيفة (صندى تيمز) فسيكون هذا تغييراً عظيما .

فقال دارلنج :

ــ إني أرى من سائق التاكسي ما فيه الكفاية .

ولم يكن دارلنج يقصد إلى ذلك ولكنه كره أن يكون مع فلاهرتي الذي تضحك لويز لكلامه وتسر منه كثيراً وترضى بآرائه وأحكامه في كل موضوع تقريباً . ومضى دارلنج يقول :

ــ لنذهب إلى السينما .

فقال فلاهرتي :

ــ « إنها رواية لم تر مثلها من قبل . . لقد كتبها المؤلف بمضرب كرة البيسبول[1] .

فقالت لويز تستعطفه في رقة :

ــ تعال نذهب وإني أراهنك أنها رواية عجيبة .

---

(١) لعبة كرة أمريكية وهو يقصد انها مليئة بالحوادث المثيرة

فقالت الفتاة صديقة فلاهرتى :

ـ إن أوديتز هذا له شعر طويل فقد قابلته مرة فى مجتمع ولم يفتح فمه بكلمة طول الليل .

فقال دارلنج وهو يتمنى أن ينصرف فلاهرتى وصديقته :

ـ لا أشعر بميل للذهاب إلى الشارع الرابع عشر ، إنه كئيب مكرب للنفس .

فقالت لويز بصوت عال : يا لجهنم ! .

وراحت تنظر فى وجه دارلنج ببرود كأنها قدمت إليه الآن للتعارف وهى تنظر إليه لتكون لنفسها رأيا فيه ـ ولم يكن بالرأى الحسن ـ ورآها تنظر إليه وطالع فى وجهها شيئاً جديداً خطيراً وأراد أن يقول شيئاً لولا وجود فلاهرتى وصديقته اللعينة ، وعلى أى حال فإنه لم يجد ما يقوله . وقالت لويز وهى تتناول سترتها :

ـ إنى ذاهبة ولا أعتقد أن الشارع الرابع عشر مكرب للنفس .

فقال فلاهرتى وهو يساعدها فى ارتداء سترتها :

ـ أريد أن أقول لكم أنها معركة (جيتسبرج) فى (بروكلاينز)

وقالت صديقة فلاهرتى وهم يخرجون :

ـ لم يسمع منه أحد كلمة واحدة . . كل ما فعله أنه جلس صامتاً طول الليل .

وردوا الباب وراءهم بغير أن تلق عليه زوجته تحية المساء . فدار دارلنج فى الغرفة أربع مرات ، ثم استلقى على الأريكة فوق صحيفة (صندى تيمز) نحو خمس دقائق وهو ينظر إلى السقف ويتخيل فلاهرتى وهو يمشى فى الطريق بين الفتاتين وقد تأبط ذراعيهما وهو يتحدث بذلك الصوت المدوى . وكانت لويز تبدو فاتنة فقد غسلت شعرها بعد الظهر فبدا ناعماً خفيفاً ملتصقاً برأسها وهى ترتدى سترتها غاضبة ، وكانت تزداد جمالا كل عام ولعل من أسباب ذلك أنها أدركت الآن مبلغ جمالها وصارت تعنى بأن يبدو دائماً فى أبهى حالاته . وقال دارلنج وهو يقوم من مجلسه : « يا لهم من حمقى فارغى الرؤوس » وارتدى سترته وذهب إلى أقرب حان وجلس وحده فى ركن منه وشرب بكل ما معه من النقود خمسة أقداح .

وغامت سماء حياتهما من ذلك الوقت وراحت السنون تمر من سىء إلى أسوأ ، غير أن لويز كانت لطيفة معه ومحبة كريمة على أى حال . ولم يختلفا غير مرة واحدة حين قال أنه سننتخب (لاندون) فصاحت هى :

— يا إله العرش ! لابد أنه قد حدث خلل فى عقلك . . ألا تقرأ الصحف ؟ أتعطى صوتك لهذا الجمهورى المفلس .

وقد أبدت له أسفها فيما بعد واعتذرت عن جرح شعوره ولكنها كانت كأنما تعتذر لطفل .

ولقد بذل كل جهد لينسجم معها ويحذوا حذوها فصار يذهب إلى معارض الفن وهو مكتئب ، وإلى قاعات الموسيقى وحوانيت بيع الكتب ولكن عبثا حاول ؛ فقد غلبه السأم ولم يحرك مشاعره شىء مما رأى أو سمع

أو بما قسر نفسه على قراءته وأخيراً أقلع عن كل ذلك. وطالما فكر في الطلاق وهو يتعشى بمفرده ويعلم أن لويز ستأتى متأخرة وتستلق فى فراشها فى صمت بغير أي إيضاح أو اعتذار لولا أنه خاف الوحدة، واليأس من أن يراها ثانية. وعلم أن ذلك أ كثر مما يطيق، ولذلك صار يعاملها معاملة طيبة ويخلص لها إخلاصاً تاما ؛ فكان على أتم استعداد أن يذهب معها فى أى وقت إلى أى مكان تريده ويفعل كل ما تشاء، بل إنه فوق ذلك وجد عملا فى محل سمسار واستطاع أن ينفق على نفسه ويدفع ثمن شرابه ثم عرض عليه بعد ذلك عمل آخر وهو أن يطوف بالجامعات مندوباً لحائك ثياب اسمه السيد روزنبرج إذ قال له :

ــ إنى أريد رجلا تعرف فوراً عندما يقع بصرك عليه أنه رجل جامعى .

وقد أعجب روزنبرج بكتفى دارلنج العريضتين وخصره النحيل الذى لم يدب إليه السمن وشعره المرجل ووجهه النبيل لا أثر فيه للتغضن فقال له :

ــ إننى بصراحة يا سيد دارلنج أريد أن أعرض عليك عرضا فقد سألت عنك وعلمت أن لك سمعة طيبة فى الملاعب التى كنت تلعب فيها فيما مضى، وقد علمت أنك كنت فى الملعب الخلفى مع الفريد ديدريخ .

فأشار إليه دارلنج برأسه موافقاً وقال :

ــ وماذا حدث له ؟ .

ــ قد مضت عليه سبع سنوات وهو معصوب بطوق من الحديد ، فقد احترف لعب كرة القدم وأصيب بكسر فى عنقه .

فابتسم دارلنج فإن هذا على الأقل ، قد انتهى نهاية حسنة . وقال روزنبرج :

ــ إن الثياب التى ننتجها تباع بسهولة ياسيد دارلنج فعندنا ثياب جميلة تفصل حسب الطلب ، وبأى شىء تزيد علينا شركة إخوان بروكز إنما هى مسألة إسم ليس إلا .

وفى تلك الليلة قال دارلنج للويز :

ــ يمكننى أن أربح ستة وخمسين دولاراً فى الأسبوع غير نفقاتى وأستطيع أن أدخر شيئاً من النقود وأعود إلى نيويورك فأبدأ بها فعلا عملا لى » .

فقالت لويز :

ــ نعم يا طفلى العزيز .

فقال باهتمام :

ــ ويمكننى فى الوقت الحاضر أن أعود مرة فى الشهر ، وفى أيام العطلة وفى الصيف ، وبذلك نتلاقى كثيراً .

فقالت :

ــ نعم ياعزيزى .

فنظر إلى وجهها وهو أجمل فى الخامسة والثلاثين مما كانت فى أى وقت مضى ، غير أنه تظلله الآن ومنذ نحو خمس سنوات سحابة من الضجر الخفى فى تلطف وصبر جميل . فسألها قائلا :

— ما رأيك ؟ هل أقبل هذا العمل ؟

وكان يتمنى فى أعماق نفسه فى لهفة عارمة أن تقول له :

— كلا أيها الطفل العزيز ! بل تبقى هنا .

ولكنها قالت كما توقع :

— أظن الأفضل لك أن تقبل هذه المهمة .

فأشار برأسه موافقاً ، واضطر إلى أن يقف ويوليها ظهره ويطل من النافذة ، فقد ارتسم على وجهه بوضوح مالم تره مطلقاً فى الخمس عشرة سنة التى عرفته فيها .

وقال لها :

— خمسون دولاراً ! إنه لمبلغ كبير وما كنت أحسب أنى سأرى خمسون دولاراً مرة أخرى فى حياتى .

وضحك ، وضحكت زوجته أيضاً .

◆ ◆ ◆

جلس كريستيان دارلنج على العشب الغض الأخضر فى ساحة التمرين . وامتدت ظلال (الإستاد) حتى غمرته وكانت أضواء الجامعة تبدو على البعد مختلطة بالضباب فى سدفة المساء .

مضت خمس عشرة سنة ....

ولابد أن فلاهرتى — حتى فى نفس هذه اللحظة — ينادى زوجته ويدفع لهاثمن الشراب ويرتفع صوته فىأىحان يكونان فيه وتملؤه ضحكاته المتلاحقة السهلة الانطلاق . فأغمضدارلنجعينيه شيئاً ، ورأى بعين خياله ذلك الفتى الذى كان منذ خمسة عشر عاما ، وهو يلتقط الكرة فى إحدى توزيعاتها ويتخلص من الظهير الأوسط ويروغ إلى آخر الميدان فى سهولة وخفة وركبتاه ترتفعان فى سرعة ورشاقة وهو يبتسم لنفسه لأنه يعلم أنه سيتخطى آخر حارس للدفاع ... كانت القمة — حسب ما ارتأى دارلنج فى تفكيره — هى التىوصل إليها منذ خمسة عشر عاما .

كان ذلك فى مساء أحد أيام الخريف وهو فى العشرين من عمره ، لا يخطر الموت له على بال ، وتمتلىء رئتاه بالهواء فى سهولة تامة مع شعور عميق فى نفسه بأنه يستطيع أن يفعل كل شىء ، ويلقى بأى إنسان أرضا ويتجاوز فى عدوه كل من يرا كضه ، ثم الحمام بعد اللعب وثلاث كوبات من الماء وهواء الليل البارد يرطب شعره المبلل ، ولويز تجلس بغير قبعة فى السيارة المفتوحة وهى تبتسم له ، وأول قبلة عاطفية تبادلاها . كانت القمة فى نظره تمرين الثمانين ياردة وقبلة فتاة ، وكل ما حدث بعد ذلك كان انحداراً عن هذه القمة ...

وضحك دارلنج ، ولعله أخطأ اختيار ما يتدرب عليه . فلم يهيىء نفسه لعام ١٩٢٩(١) ، ولمدينة نيويورك وللفتاة التى ستصبح سيدة ناضجة . .

---

(١) هى سنة كساد عام حدثت فى الولايات المتحدة الامريكية وقد سبقت الاشارة اليها .

ثم أخذ يفكر ويسائل نفسه « لابد أنني كنت قد وصلت معها إلى مرتبة من الود كانت هي التي تسعى فيها إلى، بل أكثر من ذلك إنها لبثت معي زمنا كنت أستطيع أن أمسك بيدها — ليتني كنت أعلم — وأضغط عليها ثم أمضي بها » .. ولكنه لم يكن يعلم .

وها هو ذا يقف الآن على أرض الملعب الذي كان يلعب فيه منذ خمسة عشر عاما ، وزوجته في مدينة أخرى تتناول عشاءها مع رجل أفضل منه وتحادثه بلغة أخرى جديدة لم يتعلمها هو .

فوقف دارلنج وابتسم قليلا وهو يشعر بأنه لو لم يبتسم لتحدرت دموعه . وأدار النظر حوله .. هنا إلى هذه البقعة جاءت الكرة التي أطلقها (اوكونور) .

هذه البقعة قمة مجده . . . ورفع دارلنج يديه وكأنه يحس بالكرة تلطم يديه وهو ينتفض ليرمى عنه الظهير الأوسط ، ثم انقض عائداً إلى قلب الملعب ورفع ركبتيه إلى أعلى وقد وطيء برشاقة لاعبين قد تعثرا أرضاً عند خط اشتباك اللاعبين وهو يجرى بسهولة ويسر حتى فاتهم بعشر ياردات وهو يحمل الكرة بخفة في كلتا يديه ، ثم راغ من الظهير الأوسط الذي كان منقضاً عليه ، وجرى وردفاه يهتزان بما يشبه عدو الفتيات ، وهو عدو الظهير الذي انفرد وحده في الملعب . وا كتسح أمامه الحارس الاحتياطي ونعلاه تلطمان العشب لطما ثقيلا ، وقد تجمدت ذراعاه وانضم مرفقاه على الكرة ، وتخشبا عليها وهو يمرق نشوان بخمرة الظفر إلى خط الهدف .

◆ ◆ ◆

ولما مرق إلى خط الهدف وتباطأ فى عدوه رأى فتى وفتاة جالسين على العشب ينظران إليه فى دهشة فوقف قريباً منهما وتدلت ذراعاه وهو يلهث قليلا برغم أنه كان فى أبدع حالة ، ولم يبهر العدو أنفاسه فقال لهما : « إننى كنت ألعب هنا فى يوم من الأيام » .. فلم يقل الفتى والفتاة شيئاً ، وضحك دارلنج فى ارتباك وهو يحد النظر إليهما وهما متجاوران فى جلستهما ، وهز كتفيه ثم استدار ومضى إلى الفندق الذى يقيم به والعرق ينفصد من وجهه وينحدر على عنقه . . .

محتويات الكتاب

صدر عن دار العالم العربى
فى مشروع الالف كتاب

أهداف هذه المجموعة

* تكوين مكتبة عربية متكاملة ، يجد القارىء العربى فيها كل ما هو بحاجة اليه من المعلومات فى شتى الموضوعات ، معروضة عرضا سهلا ، يتقبله القارىء العادى ، ويجد فيه المتخصص الحقائق والنظريات والآراء مبسوطة بغاية الدقة ، متمشية مع آخر ما وصل اليه العلم فى تلك الموضوعات .
* نشر هذه المكتبة فى أوسع نطاق ممكن ، وذلك بتخفيض السعر قدر الامكان ، واشراك اكبر عدد من الناشرين فى نشرها .
* النهوض بالكتاب العربى من حيث الشكل والموضوع .
* تشجيع عادة اقتناء الكتب وقراءتها .
* الافادة بصورة عملية من جهود العلماء والادباء فى شتى الامم ، باتاحة الفرصة أمام القارىء العربى للاطلاع الواسع على ما عندهم .
* افساح المجال أمام الشباب الطامح الى الاشتغال بالعلم والادب للمساهمة بصورة ايجابية فى النهضة العلمية والادبية .
* تشجيع الناشرين فى مصر والدول الشقيقة على الاقبال على نشر كتب العلم والثقافة العالمية ، وتعويضهم تعويضا مجزيا .
* تجديد النشاط الفكرى فى العالم العربى عن طريق الكتب القيمه التى تحمل اليه العلم والمعرفة .

الناشر
دار العالم العربى بالفجالة بمصر

الثم

طبع بمطبعة العالم العر
٢٣ شارع الظاهر بالقاهره
تليفون ٤٤٧٠٦